www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فـــى
تاريخ الأدب العباسى

إعـــداد
أ. د. محمود على السمان
عميد كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

١٩٩٥/٩٤

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

" بسم الله الرحمن الرحيم "

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين ... وبعد

فمعروف أن العصر العباسى هو ازهى عصور الادب العربى أو هو العصر الذهبى للادب كما يصفه الواصفون من النقاد وهو كذلك بحق لان العصر الذى اجتمعت فيه الثقافة العربية الاصلية والثقافات الاجنبية الوافدة ، والذى امتزجت فيه الدماء العربية مع دماء اصحاب البلاد المفتوحة وكم كان أثر الثقافتين الفارسية واليونانية كبيرا فى تطوير الثقافة والادب العربيين .

وسوف نقرأ فى هذا الكتاب ما يمتع ويشيع ويروح من هذا التاريخ الادبى العظيم بكل ما اشتمل عليه من أحداث ومن شعراء وكتاب بما يطلعنا على بعض عظمة هذا العصر العظيم الممتد فى التاريخ وفى الارض ولسوف نتعرف رموز ذلك العصر من الشعراء كأبى نواس وأبى العتاهية والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والشريف الرضى والسرى الرفاء ، وكالمتنبى والمعرى وابن المعتز والطغرائى والبهاء زهير وابن الفارض ومن الكتاب كابن العميد والقاضى الفاضل والعماد والهمذانى والحريرى ...

ومن كل ذلك سوف نطمئن الى أن تراثنا وبخاصة فى ذلك العصر تراث عظيم فى كل شىء ولا سيما فى الادب ، وأن علينا ان نحافظ عليه بالامتداد به بما يجعله موصولا فى الاجيال الجديدة الحالية والقادمة تحقيقا لهدف اعظم وهو تبين عظمة الخالق جل وعلا فى بيانه المعجز ـ القرآن الكريم .

والله ولى التوفيق ... د . محمود السمان

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

القسم الأول

العصر العباسي الأول

www.dar-alkotob.com دار الكتب

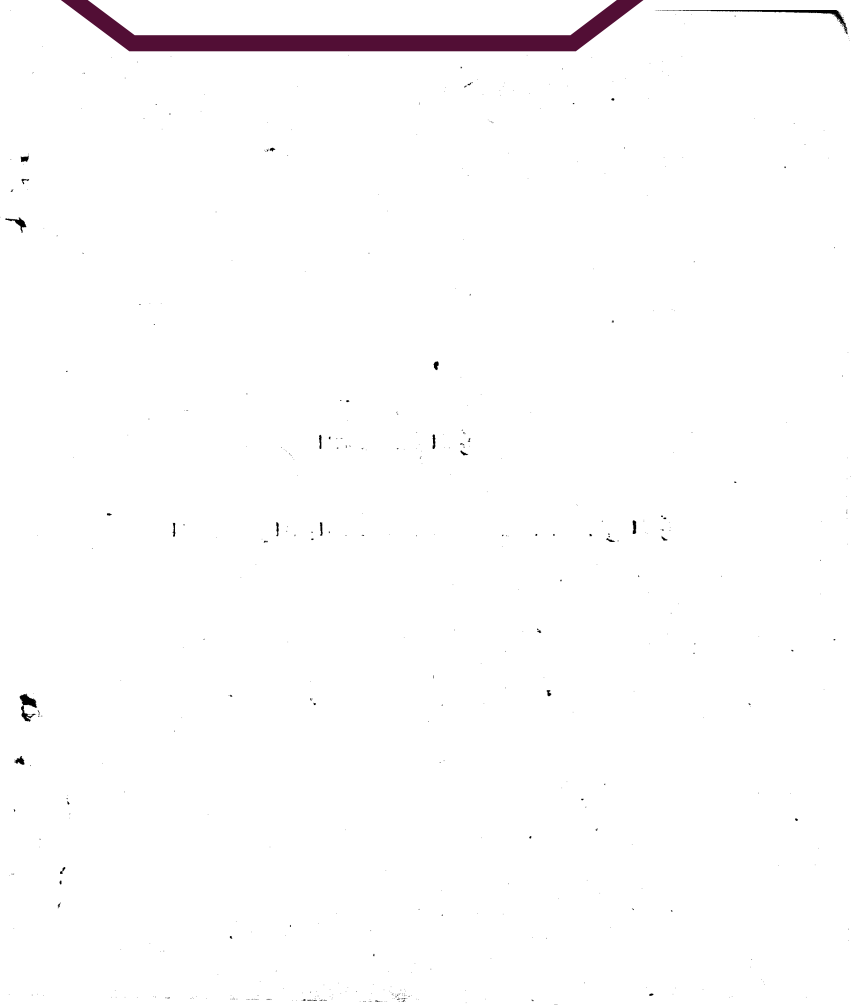

www.dar-alkotob.com دار الكتب

العصر العباسى الأول *

(من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٣٣٤ هـ)

الحياة الإسلامية فى هذا العصر

قدمنا أن الأمة العربية كانت محتفظة بعربيتها وإسلامها فى زمن الدولة الأموية بالرغم من اقتباسها بعض نظم الحكم والحرب والسياسة والإدارة من الأمم ذوات الحضارات القديمة التى فتحت بلادها ، فكانت أكثر المناصب الرفيعة فى الدولة مقصورة على العرب ، وجمهرة جيوشها من العرب . وكانت عربية الصيغة فى شارتها وملبسها وما كلها . فكان تعصبها للعرب والعربية مما أحرج صدور الأمم الداخلين فى طاعتها ودينها ، وجعلهم يتمنّون زوالها ، وشاركهم فى ذلك قبائل اليمانية لتعصبها لمضر عليهم مع أنهم الاصل فى قيام دولتها .

فلما قامت الدعوة العباسية فى خراسان ، على أساس التسوية بين الشعوب الإسلامية والقبائل العربية فى الحقوق والمعاملة ، ترامى فى أحضانها فرس خراسان وعربها من اليمانية ، فاكتسحت بهم الدولة الأموية ومنحتهم ما وعدتهم به ، بل غلت فى حبها للفرس واختصتهم بكثير من المزايا ، فكان لها منهم قواد جيوش وولاة وحجاب ووزراء وكتّاب . ونقلت حاضرتها إلى جانب المدائن عاصمة الفرس القديمة اعتزازا بالفرس وثقة بهم . ونقلت نظامهم الكسروىّ فى تنسيق دواوين الدولة وأساليب الحرب ، وحاكتهم فى الأبنية والمساكن والملابس حتى الاحتفال بالأعياد الوطنية الفارسية ، فاصطبغت الدولة العباسية فى جملتها بصبغة فارسية ، إلا أن حضارة الفرس لم تكن مؤسسة على ثقافة علمية فى الرياضة والطب والهندسة وعلوم الطبيعة والمنطق والحكمة ونحو ذلك مما اقتضته الحضارة اليونانية ، بل إن الفرس أنفسهم عند ما أرادوا التوسع فى العلوم اقتبسوا بعضها من اليونان ،

---

* من كتاب " المفصل فى تاريخ الادب العربى " للاستاذ احمد الاسكندرى وآخرين جـ٢ سنة ١٩٢٦

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وترجموه إلى الفارسية زمن كسرى أنوشروان؛ فرأى أبو جعفر المنصور محاكاتهم فى ذلك فأخذ يقتبس أيضا لترقية دولته من الحضارة اليونانية ، وتابعه أحفاده فى ذلك . وكان بفارس والعراق والجزيرة وشمالىّ الشام بقايا شعوب سامية وآرية أخذوا بحضارة اليونان زمنا ثم دان بعضهم بالنصرانية ، وبقوا على معرفة باللغة اليونانية ، فنقلوا للخلفاء علوم اليونان ، وتعلمها منهم علماء العرب وهذبوها ونبغوا فيها ، وامتزجت مسائلها بعقائد المسلمين فى المباحث الإلهية واستعملت طرق برهاناتها وجدلها فى إثبات أصول الفقه، فأصبحت حضارة الدولة العباسية متشكلة بشكل فارسى فى سياستها وإدارتها ومعيشتها ، وبشكل يونانىّ فى ثقافتها العلمية الكونية وبشكل إسلامى فى اعتقادها .

ثم أخذ نفوذ العرب السياسى فى الدولة يضمحل بالتدريج ، فلم يكن لهم بعد قرن فى المشرق وخراسان شأن سياسى يذكر ، وزادهم ضعفا قطع المعتصم أرزاقهم من جميع دواوين الجند وإحلال موالية من الترك محلهم ، فاندمجوا فى غمار العامة وتكسبوا بالزراعة والحرف ، وضعفت فيهم النَّعْرَةُ العربية ، فامتزجوا بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمجاورة . وتكوّن من مسلمى هذه الشعوب أمة مسلمة ذات حضارة ممتزجة من حضارات شتى ، فيها محاسن هذه الحضارات وعيوبها؛ ولكن الحرية التى مُنحتها الفرس والشعوب المستعجمة استغلها كثير منهم فى الشر ، ففشا فيهم كثير من أمراض هذه الأمم الاجتماعية والخلقية التى كانوا يخفونها ، فجاهروا بها ، وجاهروا بكثير من عقائد الزندقة والإلحاد فتنبه الخلفاء لخطر العاقبة فتتبعوا الزنادقة والملحدين والفساق قتلا وحبسا ، وتجردت طائفة لمقاومتها بالوعظ والقصص عن الأنبياء والصالحين والترغيب فى صالح الأعمال والتزهيد فى الدنيا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتشدّد الحنابلة (وهم جل العامة فى بغداد) فى الإنكار عليهم ، وكان لهذه الطائفة المقاومة للتهتكين والفساق وعاظ وقصاص وخطباء وشعراء منهم أبو العتاهية .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فأجدى عملهم بعض الإجداء ؛ ولكن عداواها كانت قد سرت فى بغداد بين الكتاب والشعراء من طَغامة الموالى من الفرس وأهل السواد ، ومنهم سرت إلى أمثالهم من بعض السلائل العربية . فأثر ذلك فى اللغة والأدب تأثيرا بينا .

تأثر الأدب بالحضارتين الفارسية واليونانية

كان تأثر الأدب العربى فى الدولة الأموية بحضارات الأمم المغلوبة للعرب قليلا محدودا : لأن الأدب فى ذلك العصر كان محصورا فى الشعر والخطابة وبعض الرسائل . وكان كل فحول الشعراء والخطباء نشئوا إما فى بلاد العرب ، وإما فى البصرة والكوفة ؛ فهما مسكَران عظيمان بَنَتْهما العرب وأسكنتهما مقاتِلتها من الفاتحين وأبنائهم . ولم يكن قد تَمّ استعراب العجم ولا انتشرت ثقافتها بينهم . ولم يكن كذلك شأن الأدب فى العصر الأول من الدولة العباسية ؛ فإن مَنْ هَمّ بالاستعراب من أبناء الفرس فى العراق وفارس وخراسان ، ومن غيرهم فى الجزيرة الفراتية والشام ومصر ، وأخذ نفسه بالثقافة الإسلامية ، وتعلم العربية لم ينضج استعداده لأن يمتزج بالعرب ويمتزجوا به إلا فى أواخر الدولة الأموية ؛ فلم يظهر لاستعرابه ثمرة إلا فى صدر الدولة العباسية ، فكان لكل من الحضارتين الفارسية ، واليونانية المتمثلة فى بقايا السريان والنبط والروم أثر فى أدب اللغة منذ ذلك الحين .

تأثير الحضارة الفارسية — فلما جاءت الدولة العباسية بحرية الشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم وتنفيل الفرس مزايا حُرِم منها العرب أنفسهم ، كان هؤلاء المثقفون منهم بالثقافة الإسلامية العربية أول من استجاب للدعوة العباسية ، واقتدى بهم كل من تطلّ إلى شرف الرياسة أو سعة الجاه فى هذه الدولة ، فأسلم الكثير منهم مخلصا للإسلام أو منافقا ، وهبوا يتعلمون العربية وأدبها ، ويتفقهون فى الدين ، حتى كان منهم وممن قبلهم من مخلصهم أئمة للإسلام فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وأخذ عنهم المسلمون عربا وغير عرب أصول دينهم وأدب لغتهم ،

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وكان منهم كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين ، وكان منهم شعراء أحدثوا أحداثا جديدة فى أغراض الشعر ومعانيه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والأمراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وسير ملوكهم وأبطالهم وقصصهم وأسمارهم وخرافاتهم المحكية على ألسنة الطيور والبهائم والجن والشياطين .

وكاد منافقوهم للإسلام والمسلمين كيدا عظيما ، فدسوا على أهل الغفلة كثيرا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله وعلى أصحابه ، وصنعوا على ألسنة الأعراب شواهد من الشعر وقصائد طنانة نحلوها فحول الشعراء ، ونقلوا إلى العربية فى السر كثيرا من كتب زنادقة الفرس وملاحدتهم ، فأفسدوا عقول كثير من الناس .

تأثير الحضارة اليونانية — وكانت الشعوب الداخلة فى طاعة الفرس والروم من بقايا الأمم السامية واليونانية قد ورثوا عن قدمائهم حضارات مختلفة ، وأخصها الحضارة اليونانية من الحكمة والرياضة وعلوم الطبيعة والمنطق والفلك والجغرافية والموسيقى ، وكانت هذه العلوم قد امتزجت بمباحث النصرانية واليهودية ودُرِّست فى كنائسها ويِّعِها باللسان اليونانى القديم ، فنقل خلفاء العباسيين كتب هذه العلوم على أيدى العارفين باليونانية ، وبعثوا بالبعوث العلمية إلى مدن الروم والقسطنطينية لتعلم اليونانية وترجمة كتبها ، فنقلوا معظمها إلى العربية وتعلمها المسلمون وحذقوها وصححوها ، فكان لها تأثير كبير نافع فى المباحث الدينية من علم الكلام وأصول الدين وصناعة الجدل والمناظرة ، وإدخال قضايا العلوم ومذاهب الفلاسفة فى الشعر العربى ، وتأثير سىء فى عقول المستضعفين ؛ فأضاف إلى فرق الملاحدة فرقا أخرى ، وظهر أثر ذلك فى الشعر والأدب . وحدثت فى كتب العلم لغة تأليفية تقاس بمعيار المنطق لا بالبلاغة العربية .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الشعر فى العصر العباسى الأول

الشعر فن جميل تُبْهِجُ النفس محاسنه كما تسترعى البصر محاسن التصوير، وتُشَنِّفُ الأذنَ محاسنُ الموسيقى والغناء ؛ فهو كبقية الفنون الجميلة مُتْعَةٌ تُطلب من أربابها لتكميل الحياة المهذبة ؛ فلا جَرَمَ أن كانت صناعة الشعر العربى رائجة السوق عند ما بلغت العرب مرتبة طلاب الكمال، أى فى أواخر جاهليتها ، وفى صدر إسلامها، وعند امتداد سلطانها إلى أكبر مدى فى حكم بنى أمية ؛ غير أن نَظْمَه وطلبه للاستمتاع به كانا مقصورين على العرب ؛ إذ لم تكن العجم بلغت بعد من التعرب والتفصح درجة تقول فيها الشعر الجيد الذى يَزْحَم الشعر الفصيح المتخرجَ شعراؤه فى بوادى العرب . وإنما تهيأ لهم ذلك أو كاد عند ما شارفت دولة بنى أمية الزوال؛ فوجدوا من عطف الدولة العباسية على الأعاجم، وبخاصة الفرس القائمون بدعوتها، معرضا يعرضون فيه تفائس شعرهم، ويفوزون فيه بأكبر الجوائز ؛ إذ كانوا قد جمعوا فى شعرهم بين فصاحة البداوة، وبداعة الحضارة . وبمثل ذلك حَظِىَ مُتَحَضِّرة العرب من أهل الكوفة والبصرة وقرى الجزيرة الفراتية وشرق الشام الذين تعلموا العربية بالصناعة كالعجم، وسموا معهم لذلك بالمحدَثين والمولَّدين . فزاحم شعراء الحضر شعراء البادية عند عظماء الدولة ، وحلوا عندهم محل السُّمار والمحاضرين والندماء ، بل رقى بعضهم إلى رتبة الوزارة والولاية كمحمد بن عبد الملك الزيات ومسلم بن الوليد وأبى تمام ، إلى أن خفت صوت شعراء البادية فى أواسط هذا العصر .

وقد حَفَلَ الخلفاء العشرة الأولون من خلفاء بنى العباس بالشعر والشعراء فعقدوا لهم مواسم سنوية يعقدون فيها للشعراء ، ويستمعون لقصائدهم، ويمنحونهم

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الجوائز على حسب إجادتهم أو موافقة شعرهم لسياستهم : إبقاء على مَنْقَبَةٍ جميلة من مناقب العربية وترفيعا على أهلها . وشاركهم فى ذلك وزراؤهم وعمالهم ورؤساء دواوينهم من الفرس وغيرهم ؛ حتى كان منهم شعراء وأدباء لايقلون عن المتكسبين بالشعر .

فبلغ الشعر فى هذا العصر غاية لم يبلغها بعده إلا عند المتنبى ، وهو ممن أدرك هذا العصر ، وإن لم تكن هذه الغاية كل ما كان يرجى للشعر العربى من الكمال ؛ وذلك لانكفاف خلفاء العرب وأمرائهم عن شد أزره بغلبة عبيدهم من الترك والديلم على أمرهم ، واستحياء كثير منهم لآداب لغتهم .

ومع تفنن شعراء المولّدين فى أغراض الشعر ، وإبداعهم فى معانيه ، وترقيفهم لأساليبه ، لم يزالوا فى الجملة محافظين فى إنشاء القصيدة على الأوضاع الموروثة عن العرب منذ جاهليتها فى بنائها على قافيةٍ واحدةٍ ووزن واحد ، وفى ابتدائها بالغزل والنسيب بذكر الديار والأطلال والظعائن ، ووصف الناقة ، والرحلة فى الفلاة ووصف مافيها من الوحش والصيد ، والتمهيد بذلك للغرض المطلوب من مدح أو تهنئة أوهجاء ، وإن لم يكن الشاعر سلك بادية أو ركب ناقة . وعلتهم فى ذلك إبقاؤهم لذكرى وطنهم وتظرفهم بالتشبه بالأعراب فى أخص خصالهم فى شعرهم ؛ على أن بعض الشعراء من سلائل العجم كأبى نواس لم يلتزم ذلك فى شعره ؛ وطالما نَعَى فى مطالع قصائده على شعراء الحضر المحدثين الذين يسلكون مسلك الأعراب ، واستبدل به الابتداء بخمرياته ومجونياته ، أو وصف القصور والبساتين وركوب السفن بدل النوق ، وجاراه كثير من أمثاله .

ويمكن إجمال التغيّرات التى طرأت على الشعر مدة القرنين الأولين من خلافة بنى العباس فى أغراضه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه فيما يأتى :

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أغراضه — نُظِم الشعر هذا العصر في أغراض نَظَمَتْ فيها العرب من قبل، ولكنها تشكلت بشكل خاص في الدولة العباسية أو كثُر استعمالها فيها، وفي أغراض ابتُدِعت ابتداعا .

فمن الأغراض التي تشكلت بشكل خاص أو كثر استعماله فيها :

(١) استعماله في العصبية — فقد كانت مقصورة قبل على المفاخرة بين بعض قبائل العرب وبعض، فزادت عليها العصبية بين العرب والعجم كما في شعر الشُّعوبية، ولم يكونوا يحسرون على قوله في دولة بني أمية ؛ وبين أرباب العلوم والصناعات كنحاة البصرة ونحاة الكوفة ، وبين مختلف المذاهب من الفقهاء والمتكلمين .

(٢) استعماله في السياسة بين شيعة العلويين وشيعة العباسيين — ولم يكن قبل خلاف بين الشيعتين بل كانوا جميعا يسمَّوْن شيعة بني هاشم المعارضة لشيعة بني أمية ، وفي مظاهرة خليفة أو ولي عهد على منافسٍ له من العباسيين ، وفي نقد سياسة الدولة العباسية في إيثارها العجم على العرب ، وفي توليتهم إياهم مقاليد أمور الدولة .

(٣) تنوع الوصف — فقد تنوع وتشكل بأشكال شتى : من وصف القصور والبساتين ومجالس الأنس والمصانع والآثار القديمة ومصايد الطير والسمك ووصف أنواع السفن المختلفة : من سفن السفر والانتقال وسفن القتال ، ووصف أحوال الطبيعة وأحوال النفس وغير ذلك من الأمور الدقيقة .

(٤) زيادة استعماله في المجون والخلاعة والتهتك وحكاية المخازي والفسوق — وبعض ذلك قد كان في عصر الأموية بحال لم تبلغ حد البشاعة التي كان عليها في الدولة العباسية ، ومن شعراء هذا الصنف المَقِيت أبو نواس وكثير من أمثاله .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

(٥) نظمه فى الحكمة وضرب المثل — وكان يقال منه القليل فى الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية فى خلال بعض القصائد ؛ ثم لما ترجمت حكمة اليونان والفرس والهند أدخل الشعراء كثيرا منها فى شعرهم وزادوا عليها كثيرا من اختراعهم ، ومن أشهرهم صالح بن عبد القدوس وأبو تمام .

ومن الأمور التى ابتدعت فى أغراض الشعر :

(١) الغزل بالمذكر — ولم تكن تعرفه العرب قط ، وإنما صدر عن المستهترين بالفسوق والمجون من أبناء الموالى ، وصرت عدواه إلى من يخالطهم من سلائل العرب ، ثم استطار شره وعمت بلواه . وكان أشد من أشاد به وأذاع سره أبو نواس والحسين بن الضحاك وأشباه لهما .

(٢) إغراق شعراء المسلمين فى وصف الخمر — وكان بعض شعراء الجاهلية يصفها ثم نهى الإسلام عن ذلك فلم يصفها إلا بعض النصارى كالأخطل . ولما ساءت الحال فى البضع عشرة سنة الأخيرة من حكم بنى أمية نظم فيها بعض المجان والمستهترين بالمجون من الأمراء مقطعات ، ونسب إلى الوليد بن يزيد بعض ذلك صحيحا أو منحولا بقصد التشنيع عليه من منافسيه من أهل بيته خاصة ، ومن الناقمين على بنى أمية عامة .

وكانت نتيجة الحرية التى نالها الأعاجم فى صدر الدولة العباسية أن جهر كثير من شعرائهم بالإغراق فى وصفها ، واستقصاء كل ما يتعلق بها مما لم يكن له نظير فى جاهلية ولا إسلام .

وحاول الخلفاء والولاة ردعهم عنها بالحبس والضرب فلم يجد شيئا ، وذاع القول فيها حتى بين من لم يشربها ، وعدوا ذلك تظرفا وتبلجا . وأكثر من أغرق فى ذلك أبو نواس ثم جاراه غيره .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

(٣) التزهيد فى الدنيا ونعيمها والتذكير بالموت والنهى عن الاسترسال فى الشهوات واللذات — وكان ظهور هذا النوع ضروريا ليكون لسان حال أهل الجد من المسلمين كالفقهاء والعلماء والمتكلمين والمحدثين وأهل الورع والزهادة يضادون به الفساق من الشعراء والكتاب ومجان الموالى ومن جاراهم من سلائل العرب .

وبطل هذه الغارة أبو العتاهية ، وربما كايده بعض الشعراء المجان كأبى نواس ؛ فنظموا فى الزهديات قصائد لا تقل فى الصناعة عن شعر أبى العتاهية ، ولكنهم لم يكونوا مخلصين فى شعرهم ، وإنما كانوا يقولونها إظهارا لمقدرتهم فى صناعة الشعر .

(٤) تأديب النفس وتهذيب الناشئين بنظم القصص والحكايات على ألسنة الحيوان والإنسان : وأول من فعل ذلك أبانُ اللاحِقِيُّ من صنائع البرامكة ؛ نظم لهم كتاب كليلة ودمنة فأجازوه بجائزة جليلة ، وتابعه فى ذلك غيره .

(٥) ضبط مسائل الفقه والعبادات وقواعد العلوم — وظهرت فائدة هذا النوع فى استذكار العلوم واستخدمه المشارقة والمغاربة إلى وقتنا هذا .

لفظه وأسلوبه ومعانيه — ظهر أثر الحضارة والتأنق وسلامة الذوق فى تخير ألفاظ الشعر وأساليبه وفى تأدية معانيه أكثر مما ظهر فى أغراضه : لاستعمال الروية ، وقلة الارتجال ، والإنحاء عليه بالتنقيح والتهذيب ، والميل به إلى جانب الرقة والسهولة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته (فى غير الهزل والمجون) من مثل مدائح الخلفاء والوزراء والولاة ورثائهم والفخر والطَرَد .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

غير أن الشعراء المتحدَّرين من سلائل أعجمية أدخلت فيه كثيرا من الألفاظ الفارسية والسوَّادية من أسماء المآكل والملابس وآنية المائدة والشراب وأدوات الزينة والصناعات ، فما كان منه فى أول الدولة قبل أن تفسد ملكة اللغة فى الأمصار اعتبر معربا يصح استعماله فى الفصيح وإلا فلا . وأكثر من فعل ذلك أبو نواس لشيوعيته وعصبيته للفرس .

وكذلك تعمد فيه هؤلاء الشعراء استعمال بعض الألفاظ والتعبيرات والأساليب الكلامية وبعض التشبيهات المستملحة فى القرءان والحديث وشعر العرب مما سمَّوه بديعا . وأول من تعمَّده بشَّار بن برد ثم أكثر منه مسلم بن الوليد حتى عدّوه أول من أفسد الشعر بتكلف البديع . وأعجب البديع أبا تمام فأفرط فيه . ثم تابعهم شعراء العصور التالية ، فاستكثروا من أنواعه واخترعوا منها ما لم ينطق به العرب . كما دخل فيه كثير من تعبيرات العلوم والفنون والصناعات التى حدثت فى صدر الدولة العباسية وشاع استعمالها حتى خالطت لغة الأدب .

أما معانى الشعر فقد روعى فيها دقة التصور والتخيلات البديعة وتركب التشبيهات والاستعارات ، وامتزجت بالروح الفلسفى والقياس المنطقى فى القرن الذين نشئوا فى عصر المأمون وما بعده من أمثال أبى تمام وابن الرومى وغيرهما . ولقلة تملُّك كثير من الشعراء بالروح الدينى أغرق الشعراء فى تملق الممدوحين بأوصاف الإله والأنبياء ، وتبع ذلك كثرة المبالغات فى كل أوصاف الشعر وأحكامه .

أوزانه وقوافيه — وراج فى هذا العصر استعمال الأبحر القصيرة التى لم ينظم منها العرب إلا قليلا فى أغراض المجون والهزل والتغنى بالشعر ومقطَّعات الهجاء .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ونظم المولدون من أوزان غير أوزان العرب اخترعوها[١] ، وعدلوا أحيانا عن إنشاء القصيدة الطويلة على قافية واحدة فنظموها مقطعات كل منها على قافية خاصة . وكانت نتيجة ذلك ظهور نوعين من الشعر اشتهر استعمالها .

أولها — الشعر المزدوج — فهو يتألف من مشطورين على قافية ثم من مشطورين آخرين ، وهكذا . وأكثر ما كان يستعمل فى نظم الأمثال وحكايات الحيوان ، ونظم القصص ، وقواعد الفقه والعلوم . (راجع المنتخب) .

وثانيهما — الموشح — ويظهر أن أول من نظمه ولكن بغير هذا الاسم ابن المعتز[٢] ، ولكن الأندلسيين والمغاربة أمعنوا فى كثير من أنواعه ، وسموه بهذا الاسم ، وأعجبت طريقتهم المشارقة فنظموه على طريقتهم فى العصور التالية بعد هذا العصر مع تنويع القوافى فى شطور والتزامها فى شطر أو شطرين .

---

(١) وهذه الأوزان كثيرة جدا منها أوزان اخترعها الخليل بن أحمد من عكس بحور العرب . ومنها أوزان اخترعها أبو نواس وابن المعتز وغيرهما .

(٢) كقول ابن المعتز :

أيها الساقى إليك المشتكى ... قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم هت فى غـــرته
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتكا ... وسقانى أربعا فى أربع

ما لعينى عشيت بالنظـــر
أنكرت بعدك نوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبرى
عشيت عيناى من طول البكا ... وبـــكى يمضى على يمضى معى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وأشهر ما اخترع فى هذا العصر من الشعر العامى المواليا ، وأول من نظمه مولاة للبرامكة فى رثائهم [١] .

---

(١) وذلك أن هرون الرشيد لما فتك بالبرامكة أمر ألا يرثوا بشعر فرثتهم مولاة لهم بمقطعات مقفيات الشطور أربعة أربعة ووزنها من بحر البسيط إلا أنه بعبارة عامية ملحونة ، ولذلك لا يحسب من الشعر . ومن هذه المقطعات قولها فيهم .

يا دار أين ملوك الأرض أين القرن ... أين الذين حوهـا بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس ... سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وكانت تصيح عقب كل مربعة : وامواليا فاقتصر فى تسميته على لفظ (المواليا) ويظهر أن الذى كان ينظمه يسمى بالعامية (الموال) كما يسمى أهل الصعيد الذى ينظم (الواو) الموادى ثم أطلق (الموال) على نفس النظم .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أبو نواس

هو أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصَّبَّاح الحَكَمي الشاعرُ المشهور الجاحظ الماجنُ .

نسبه ونشأته — اضطربت أقوال أبي نُوَاس في نسبه ؛ فكان في أول أمره ينتسب فارسيا من أبناء الأكاسرة ، ثم انتسب مُضَرِيًّا ، ثم هجا مُضَر ، وانتسب يمانيا من قبيلة حَكَم من سَعْد العشيرة ، وافتخر باليمن ، ثم اعترف أنه من مواليهم . وهذا الزعم الأخير هو ما اشتهر بين الناس ، فقال بعضهم : إن جدّه كان من موالي عبد الله بن الجَرَّاح الحَكَمي والي خراسان زمن بني أمية ، وإن أباه كان من أهل دِمَشْق من جند مروان بن محمد ، انتقل إلى الأهواز في حامية رابطت بها ، فتزوج بها امرأة فارسية تسمى جُلْبَانَ فأتت بأبي نواس وغيره . ثم انتقلوا به إلى البصرة ، وهو صبي صغير ، فحفظ بها القرءان وشدا شيئا من العربية والأدب . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فأسلمته أمُّه إلى عطّارٍ بالبصرة يَبْرِي عُود البخور ، ولكن احترافه لم يمنعه مُعاناة الأدب والشعر . واتفق أن قدم البصرة والبةُ بن الحُبَاب الأسديُّ الشاعر الكوفي الماجن الخليع ، فرأى أبا نواس عند العطار ، وحادثه في الأدب ، وكان أبو نواس يبلغه شعره في الغزل والمجون فيُعجبه ويحبّ أن يراه ؛ فلما تعارفا أغراه والبةُ بالخروج إلى الكوفة لتخريجه في الشعر فرحل معه إلى الكوفة ، وعرّفه بأدبائها وخلعائها . وأقام معهم زمنا يعيش بخدمتهم ، ويتعلم اللغة والنحو والأدب من علماء الكوفة . وأجاد الشعر على طريقتهم في الغزل والمجون وتاقت نفسه إلى الاستزادة من غريب اللغة ، فأخرجه والبةُ مع قوم من بني أسَدٍ إلى البادية ، فأقام بها سنة ، ثم انحدر منها إلى البصرة وطنه الأول وأقام بها .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ومن هنا يبدو طور تكسبه بالشعر واشتهاره بين المتأدبين ؛ فأخذ يتم ما عرف من اللغة والحديث على علماء البصرة، وأخصهم أبو عبيدة وخلف الأحمر. ويقال إن خلفا هو الذى لقبه بأبى نواس تعصبا معه لليمانية لأن (ذا نواس) من ألقاب ملوك حمير ، فحوّل إلى أبى نواس . وقيل كُنّى بذلك لذؤابتين كانتا له فى صغره تنوسان على عاتقيه .

وحفظ ألوفا القصائد والمقطّعات والأراجيز ، حتى صار حجة فى اللغة وروايةِ الشعر ، ونظر فى علم الكلام ونحل الأمم وأرباب المذاهب فى عقائدهم ، ولكن كثرة عِلمِه لم تغير من خبيث تنشئته بالكوفة على يد شيطانه والبة ؛ فأخذ يتكسب بمدح بعض الرؤساء والحكام وأشراف الناس تارة ، ويهجوهم تارة ، ويُشَبِّب بجواريهم وغلمانهم تارة أخرى . ويُشيد فى شعره جهرة بوصف الخمر ومجالس شرابها وندمانها وسقاتها ، ولم يكن ذلك مألوفا عند المسلمين بعامّة وعند أهل البصرة بخاصة . فاشتد النكير عليه واشتهر بينهم بالمجانة والاستهتار بالفسوق ورُمِى بكل آبدة .

وفى مدة إقامته هذه بالبصرة تظاهر بتَعَشُّق جارية أديبة لأحد الثَّقَفِيِّين تدعى جنان مع شدة صدودها عنه وكراهيتها له ، وأكثر من التشبيب بها فى شعره فى قصائد ومقطعات خاصةٍ بها عبثا وتماجُنا شأنه مع كل جارية شَبَّب بها ؛ إذ كان استهتاره ينزل المذكر أشهر ، وهو إليه أميل . فثقل على أهل البصرة تماجنه ، ولولا أنه كان خفيف الروح طيب الحديث حسن الفكاهة مليح النادرة غزير الأدب والعلم لفتكوا به . ثم رأى هو أن البصرة على رَحْبها تضيق برغبة نفسه من الاستمتاع باللذائذ وطيب العيش وسعة النفقة ، ورأى أن دار السلام أنفق سوقِ لشعره الجيد من البصرة ، وأنه أهل لأن يعرضه على ملوكها وخلفائها ، فانتقل إليها وسنه قد أربت على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء من أهل بيتِ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الخلافة وبعض الرؤساء ، وبلغ خبره الرشيد ، فأذن له فى مدحه فمدحه بقصائد طنانة ، ولم يَرُجْ شعرُه كثيرا عند البرامكة ، فكان يمدحهم تارة ويهجوهم أخرى ، حتى انتهت دولتهم .

وسَمِع بكرم الخصيب عاملِ مصر للرشيد ، فقصده ومدحه بعدة قصائد من أبلغ شعره ، وحصّل من جوائزه ومن جوائز أعيان أهل مصر أكثر من ثلاثة آلاف دينار أنفق أكثرها فى عامٍ قضاه فى الفسطاط يَنْعَم بها ويطرب . ثم رجع إلى بغداد وأقام بها بقية عصر الرشيد . ولما ولِى الأمين الخلافة عكف على مدحه ، وكاد يبلغ فى عصره أمنيّته لولا ما كان يشاع عنه من سوء القالة فى تهتكه وعجونه . ولم يعش أبو نواس بعد موت الأمين إلا قليلا ؛ فاعتل مدة وساءت حاله . ومات فى بيت أحد أصدقائه من آل نَوْبخت سنة ١٩٦ هـ والمشهور أنه تاب قبل أن يموت .

شعره وأثره فى الأدب — كان شعر بشّارٍ بَرْزَخًا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواس فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا مُحْدَثا جامعا لكل ما تصوّره المحدثون فى الشعر من جدّ وهزلٍ وجزالة وسهولة ؛ فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهرُ مَنْ تَسَمَّتَ طريقَتَهُ فى الجدّ والهزل والهجاء ، غير أن بشارا كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقُّر ؛ فلم يَتِف بالخمر فى شعره إلا لِماما ، ولم يعجبه الغزلُ بالمذكر ، ولم يسلك مسلك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل .

وأبو نواس سلك طريقته فى الهزل والمجون ، وركب رأسه فى الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العِذار فى هذا الغزل

www.dar-alkotob.com دار الكتب

والخمريات حتى أصبح مثلَ سَوْءٍ لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاء والمُجّان ، حتى رسخ هذا الصِّنفُ مِن الغزل والخمريات بعد حين فى أغراض الشعر وتَعمّدُه مَن لم يقع فى محظوره حتى الصوفية .

ولا يؤخذ من قولنا : إن شعر أبى نواس كان أسوأ قدوة لكثير من نابتة عصره والعصور التى تليه أن الصورة المتكونة من أخبات شعره وأرفاثه تُمثّل حالة المجتمع الإسلامى فى خُلُقه ومقدار تمسّكه بشعائر الدين على اختلاف مواطنه ، وخاصّة العراق وبغداد ، إذ كان العصرُ الذى يعيش فيه هذا الشاعرُ الماجنُ فى البصرة والكوفة وبغداد هو عصر النهضة الإسلامية فى التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة والأدب والتاريخ والمغازى والفلسفة .

وإنما هو يمثل بيئة الفساد فى العراق التى انغمس فيها طبقة المترفين والفُتّاك والتى لا تخلو منها حاضرة مملكة عظيمة تملكُ ألوفَ الألوف من مختلف الأمم مهما تَصَعّبَتْ قوانينها فى مطاردتها فى عصرنا هذا ، فكيف ببغداد ، وقد كان فيها مئات الألوف من سلائل سَبْى الأمم التى غلبها العرب على أوطانها لفساد أخلاقها ، وانحطاط نفوسها ، وقلة شعورها بالشرف ، وكان فيها أسواقٌ نافقة للرقيق من الجوارى والقيان والغلمان يباع بمتفاوت الأثمان ، ويسهل اقتناؤه على السوقة والوضعاء الذين يستغلونه فى وجوه شتى من المكاسب .

وإذا جاز لنا أن نجعل شعر شاعر واحد مرآة لحال طبقة من الأمة فشعر أبى العتاهية يمثل طبقة أهل الزّهادة فى الأمة ، وصالح بن عبد القدوس يمثل أهل الجد والتزمّت .

ولا يضير الرشيد والأمين فى شرفهما وخُلُقِهما إعجابهما بشعر أبى نواس وفكاهته ، فكما عطفا عليه بإثابته على جيّد مدحه لهما شدّدا عليه النكير ، وعاقباه على تهتّكه فى قوله وعلى شرب الخمر عقابا شديدا ، فقد رَوَى المؤرخون أن

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الرشيد سَجَنه فى هجائه مُضَر وأطال سجنه ، ثم سجنه مرة أخرى لتصريحه فى شعره بشربه الخمر والحثّ على شربها. وسجنه الأمين مرة فى شرب الخمر أيضا . حتى تاب عنها وعن ذكر شربها فى شعره وهدده بالقتل إن شربها . ثم سجنه مرة أخرى فى هجائه سليمان بن جعفر عم أبيه مدة طويلة حتى استشفع بوزيره الفضل بن الربيع فأطلقه .

ولم يطل حكم الأمين بعدُ كما لم تطل حياة أبى نواس بعده .

الصحيح والمنحول من شعره — إذا اشتهر عظيم بأمرٍ من الأمور نسب إليه كلُّ ما جُهل مصدره من هذا الأمر ؛ فمثلا نُسب إلى حَسّان كلُّ شعر قيل فى النبوة ومناقضة قريش والأنصار وجُهل قائله . ونُسب إلى أبى نواس كلُّ شعر جُهل قائله فى أمورٍ اشتهر بها كالمجون والتهتك والمغالاة فى وصف الخمر وغزل المذكر والطَّرَد (أى صيد الوحش والطير) بل نُسب إليه كثيرٌ من شعر خليع ماجن مثله وهو الحُسَين بن الضَّحّاك وبعضُ شعر والبةَ بن الحباب وكلاهما دون أبى نواس فى الإجادة . وبالعكس أُهمِل تدوين كثير من شعره الحقيق وخاصة ما كان منه فى الجديات ؛ إما لأنه قاله فى اغترابه فى الشام ومصر ، وإما لموت رواته قبل تدوينه أو ضياع الرقاع التى كتب فيها ، لأنه لم يُدَوِّن ديوانَه بنفسه بل دوَّنه غيره بعد ثلاثين أو أربعين سنة من وفاته فى مجموعات تختلف قلة وكثرة وصحة وفسادا ، وروى له جامع ديوانه المطبوع فى مصر بقايا قصائد له جُهلت وقِصَصا عن شعر كثير قاله فى مدح البرامكة وغيرهم وباد مع ماباد من آثارهم .

وعلى ذلك يظن أن أكثر الضعيف المنسوب إليه من نوع المنحول ، وأن باقيَه يكون قد قاله ارتجالا بين قِيان وسُقاةٍ وخلعاءَ يسكرون معه لما يشاهد فيه من التأنث والتهالك وحديث النساء .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ومن العجيب أن الخلعاء وتجار الهزل لايزالون يحملون على أبى نواس كل آبدة من الهزل والمجون حتى فى عصرنا الذى نعيش فيه .

وصف شعره من حيث أغراضه ومعانيه وألفاظه — وقد قال أبو نُواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

(١) الغزل الماجن بالمذكر والمؤنث والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوةُ بها وذكر سقاتها وندمائها وصبوحِها وغبوقِها ، وتَغَلْغَلَ فى ذلك ماشاء .

(٢) ثم الهجاء وكان منه المقبولُ الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو ، ومنه المقذِعُ الفاحشُ الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابِّها ومهاتَرتها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لمضر خاصة أن افتخر باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم . وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية . وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تماسحا التقم رجلا .

(٣) ثم الطَّرْدُ ووصفُ الصيد من الوحش والطير وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل . وله فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسَّب بهما ؛ ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد عارضها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبى نواس فى عبثه وتماجنه يُفْسِح للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطَّعات منها ماهو غايةٌ فى الباب ، وكانت جديرة أن تصدر عن أبى العتاهية . والحقُّ أنه لم ينظم هـذا النوع إلا مكايدة لأبى العتاهية وتفوقا عليه وإظهارا لقدرته على النظم فى أى غرض .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ألفاظه واسلوبه — كان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء والولاة والقواد يُفَخِّم الألفاظ ، ويتخيرها ، ويُجيد رَصْفَها ، ويكثر من الغريب فيها ، ويسلك غالبا مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح .

وكان فى طَرَدِياته أعرابيا فى شَمْلَة لا يُصَدِّق مَن يقرؤها أنها صادرة من حضَرِىّ خليع .

والمشهورُ عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم يُحْمِى عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومَن له عليه دالةٌ راعى أسلوبَ الحضريين فى دَماثته ولِينه ورِقة نسجه. ومَهَّد للديح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقّق القول فى المقطعات والخمريات ، ويُسِفُّ إلى أن يقارب العامة فى المجُونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

معانيه — جمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشارُ ابن بُرْد .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ومن المأسوف عليه أن أكثر معانيه المبتكرة وتشبيهاته البديعة كانت :

أولا — فى الخمريات — فقد فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نُسب إليه من الخمريات صِدقا أو كذبا .

ثانيا — فى الغزل بالمذكر — ولا غرابة فى ذلك فعنه وعن شيطانه والبةَ شاع هذا النوع وذاع ، ومن معانيه فيه استمد شعراء المولدين بعده . على أن له فى الأغراض الجدّية معانىَ لم يَجُمْ حولها شاعر كما أن له فيها وفى غيرها معانىَ منكرة : إما لِغُلُوّه غُلُوًّا لا يقبله العقل ولا الدين ، وإما لتسفُّله فيها إلى درجة الكفر والإباحة والتهتك .

ونذكر هنا أمثلة من جده ، ومن هزله القليل الشُّنعة :

فمن جِدّياته ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين :

لقد نزلتَ أبا العباس منزلةً ... ما إن ترى خلفها الأبصارُ مُطَّرَحا
وَكَلْتَ بالدهر عَيْنًا غيرَ غافلةٍ ... من جُودِ كفّك تأسو كلَّ ما جَرَحا

وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرونَ إمام الهُدَى ... عندَ احتفالِ المجلس الحاشدِ
أنت على ما بِكَ من قدرةٍ ... فلستَ مثلَ الفضلِ بالواجدِ
ليس على اللهِ بمُستنكرٍ ... أن يجمعَ العالَمَ فى واحدِ

وقال فى الموعظة :

ألا كُلُّ حَيّ هالكٌ وابنُ هالكِ ... وذو حَسَبٍ فى الهالكين عَريقِ
فقُلْ لمقيمِ الدارِ إنك ظاعنٌ ... إلى سَفَرٍ نائى المحلِّ سحيقِ
إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشّفَتْ ... له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقال فى معنى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى نافع ينجم عنه ضار :

أيَّةَ نارٍ قــدَحَ القــادحُ ... وأىَّ جِدٍّ بلغَ المــازحُ
لله درُّ الشَّيْبِ من واعظٍ ... وناصحٍ لو قُبِــلَ الناصحُ
يأبَى الفتى إلا اتباعَ الهوى ... ومَنْهَجُ الحــقِّ له واضحُ

وقوله فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى :

ومُسْتَعِيدٍ إخــوانَه بثرَائه ... لَبِسْتُ له كِبْرًا أَبَرَّ على الكِبْرِ
إذا ضَمَّنِى يَوْمًا وإياه مَحْفِــلٌ ... يُرَى جانِبِى وَعْرًا يَزِيدُ على الوَعْرِ
أُخالِفُــهُ فى شَكْلِــهِ وأَجُرُّهُ ... على المنطِقِ المَزْوُرِ والنَّظَرِ الشَّزْرِ
وقــد زادنِى تيهًــا على النــاسِ أنَّنِى ... أَرَانِى أَغناهم ، وإن كنتُ ذا فَقْــرِ
فوالله لا يُبْــدِى لِســانِى حاجةً ... إلى أحدٍ حتى أُغَيَّبَ فى القبرِ
فلا يَطْمَعَنْ فى ذلك مِنِّى طامِــعٌ ... ولا صاحبُ التاجِ المُحَجَّبُ فى القَصْرِ
فلو لم أَرِثْ فخرًا لــكانت صِيــانَتِى ... عن الناسِ حَسْبِى مِن سُؤَالِى مِن الفخرِ

وكان قوله : (فلا يطمعن — البيت) سببا فى غضب الأمين عليه .

ومن هزلياته قوله فى الخمريات :

دَعْ عنك لومى فإنَّ اللومَ إغراءُ ... وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ
صفراء لا تنزلُ الأحزانُ ساحَتَهَــا ... إن مَسَّها حَجَــرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وقوله :

فَتَمَشَّتْ فى مفاصِلِهم ... كَتَمَشِّى البرءِ فى السَّقَمِ
فَعَلَتْ فى اللُّبِّ إذ مُزِجَتْ ... مثلَ فعلِ النــارِ فى الظُّلَمِ

وقوله فى وصف سكير :

ومُستطيلٍ على الصهباء باكرَهَا ... فى فِتْيَةٍ باصطباحِ الراحِ حُذَّاقِ
فــكلُّ كَفٍّ رآهُ ظَنَّــهُ قَدَحًا ... وكُلُّ شخصٍ رآهُ قال ذا ســاقِ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أبو العتاهية

هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم المشهور بأبي العتاهية . وآباؤه من موالي عَنَزة إحدى قبائل ربيعة ، وكانوا باعة جرار بالكوفة فنشأ بينهم أبو العتاهية ، واحترف بصناعتهم زمنا ، ثم ربأ بنفسه عن صناعتهم ، وطلب العلم والأدب ، وكان قد جُبِلَ مطبوعا على الشعر ، فنظمه فى معانى الخاصّة والعامّة بلفظ سهل وأسلوب لين مفهوم لِكل الطبقات ، حتى لَيُخَيَّلُ لِقارئه من سهولته أنه نثر عادىّ غير أنه موزون . وكان فى صغره ينظمه فى الخلاعة والغزل ، ثم ترقّى إلى مدح الخلفاء . وخف شعره على المهدى وأهل القصر ، فأحب منهم فتاة مملوكة تدعى عُتْبة وشبّب بها عامّة شبابه ، ولمّح أن الخليفة يهبها له فزجره وعاقبه ؛ فلما يئس منها زهد فى الدنيا ورغّب الناس فى الزهد حتى اشتهر بالزهديات والوعظ . وكان عصره فى حاجة إلى مثله لشيوع الخلاعة والمجون بين طبقات الموالى وكتاب الدولة وبعض الشعراء . ومدح بعد المهدى ولده الرشيد .

وكان مع زهده بخيلا على نفسه وأهله وخدمه جَمّاعا للمال ومات سنة ٢١١ هـ ببغداد .

وأكثر شعره فى عُتْبَةَ بادَ وانقرض ، وبقى له ديوان شعر فى الوعظ والزهديات مطبوع مشهور .

ومن قوله فى عتبة :

عينى على عُتْبَةَ منهلةٌ ... بِدَمْعِها المنسكِبِ السائلِ
يا من رأى قبلى قتيلاً بكى ... مِن شدةِ الوَجْدِ على القاتلِ
بسطتُ كفّى نحوَكم سائلا ... ماذا تردّون على السائلِ
إن لم تنيلوه فقولوا له ... قولا جميلا بذلَ النائلِ
أو كتمُ العامَ على عُسرة ... منه فمَنّوه إلى قابلِ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ومن مدحه للهدى :

أتتـه الخلافةُ منقـادة إليـــه تجرُّرُ أذيالَهـا
فـلم تكُ تصلُح إلا له ولم يك يصلُح إلا لها
ولو رامَها أحدٌ قبـله لزلزلتِ الأرض زِلزالها
ولو لم تطعه بناتُ القلو ب ما قيلَ اللهُ أعمالها
وإن الخليفة مِن قول لا إليه ليُنْفِضُ مَن قالها

وكتب بديها على ظهر كتاب :

ألا إنـنـا كُلُّنـا بائد وأىُّ بنى آدمٍ خالـدُ
وبدؤهمُ كان من ربهمْ . وكلٌّ إلى ربه عائـد
فيا عجبا كيف يُعْصَى الإلـــهُ أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آيـةٌ تدُلُّ على أنه واحـد

ومن أرجوزته التى قيل إنها تبلغ أربعة آلاف بيت فى الأمثال والحكم قوله :

حسبك مما تبتغيـه القوتُ ما أكثر القوتَ لِمَنْ يموت
هى المقادير فدعنى أو فذَرْ إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القدر
إن الشبابَ والفراغَ والجِدَه مَفْسَدَةٌ للمـرء أىُّ مَفْسَدَه

www.dar-alkotob.com دار الكتب

البحترى

هو أبو عُبَادةُ الوليدُ بن عُبَيْد الطائىُّ البُحْتُرِىُّ :

وبُحْتُرٌ بطنٌ من طيِّئ كانوا ينزلون بناحية منبج بين حلب والفرات ، وهى بلاد أشبه بالبادية وإن لم تخل من خصب ، فهو بدوىٌّ فى نشأته حضرىٌّ فى ثقافته ، إلا أنه لم يخالط ذوقه الأدبىَّ تغلغلُ الفلاسفة وتعمُّقُ أهل النظر والاستدلال، فكان شعره سهلا مطبوعا صقيل اللفظ سلس الأسلوب سريع الأخذ بلب سامعه ، فهو أشهر من استحق لقب شاعر بعد أبى نواس على الإطلاق ، ولم يأتِ بعده من شعراء اللغة العربية مَن يدانيه فى حُسْن نَسْج العبارة وجمال الأسلوب إلى وقتنا هذا .

واستفاد البُحْتُرِىُّ من صُحبة أبى تمام فى تصوير الخيال الجميل ، وفى حسن استعمال أنواع البديع حسنا فاق أستاذه فيه .

وتكسَّبَ البحترىُّ بالشعر فقصَد سُرَّ مَنْ رَأَى ، ومدح خلفاءها وأمراءها وأخصَّهم المتوكلُ ، وخفَّ على قلبه ، حتى كان ينادمه فى مجالس أنسه على قذارته وقبح إنشاده ، إلا أن فصاحته غطَّت على معايبه . وقتل المتوكلُ وهو حاضر مجلسه ففرّ . ثم مدح خلفاء بغداد ورؤساء الدولة إلى أن مات سنة ٢٤٨ هـ .

وأهم ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيب والمدح والوصف .

ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبٌ يكتمُ الناسَ أنّه ... لنا — حين تلقانا العيونُ — حبيبُ
يُباعِدنى فى الملتقى وفؤادُه ... — وإن هو أبدى لى البعادَ — قريب
ويعرِضُ عنى ، والهوى منهُ مُقْبِلٌ ... إذا خاف عَيْنًا أو أشارَ رقيب
فتنطِقُ مِنّا أعيُنٌ حين نلتقى ... وتخرس منا ألسُنٌ وقلوب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقال فى المدح :

دَنَوْتَ تواضُعًا وعَلَوْتَ مَجْـدًا ... فشأناك انحـدارٌ وارتفـاعُ

كذاك الشمسُ تَبْعد أن تُسامى ... ويدنو الضوءُ منها والشـعاعُ

وقوله فى الحكمة :

إذا ما نسبتَ الحادثاتِ وجدتَها ... بناتِ زمانٍ أرصدتْ لبنيهِ

متى أَرِتِ الدنيا نباهةَ خاملٍ ... فلا ترتقبْ إلا تُحُولَ نبيهِ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ابن الرومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُرَيج الرومىّ مولَى بنى العباس كان جدُّه جريجُ مولىً لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن الخليفة المنصور .

ووُلِد حفيدُه الشاعرُ المتحدَّثُ عنه ببغداد سنة ٢٢١ هـ وبها نشأ وتعلم ، فخرج شاعرا كثير القول طويل القصائد بديع المعانى كثير الاختراع والتوليد فيها حسنَ الأوصاف والتشبيه لذّاع الهجاء قلَّ من سَلِم من أهل زمانه من عَقْر لسانه ، ولولا أنه أغفل تهذيب شعره بجمع بين الغث والسمين ولم يسقط رديئه وأنه كان مضطرب الرأى فى الحكم على الناس والزمان مفرطا فى التشاؤم من كل شىء أكثر حياته لكان منقطع النظير فى شعراء العربية . وكفاه فخرا أن المتنبى أحد رواة شعره وجامعيه .

ومات ببغداد سنة ٢٨٣ هـ قيل مات مسموما سمه وزير المعتضد القاسم بن عُبَيْد الله فى خُشْكَانة (بالكويت) .

ومن شعره قوله فى المدح :

المنعمون وما منُّوا على أحد ... يومَ العطاء ولو مَنُّوا لما مانوا
كم ضَنَّ بالمال أقوامٌ وعندهمُ ... وَفْرٌ . وأعطى العطايا وهو يَدّانُ

وقوله فى بغداد ، وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلدٌ صَحِبْتُ به الشبيبةَ والصِّبا ... ولبستُ ثوبَ العيش وهو جديدُ
فإذا تَمَثَّلَ فى الضمير رأيتُه ... وعليه أغصانُ الشباب تَميدُ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقوله يصف صانعَ رقاق :

ما أنْسَ لا أنْسَ خبّازًا مررتُ به ... يَدْحُو الرُّقاقة مِثْلَ اللَّمْحِ بالبَصَرِ
ما بَيْنَ رُؤْيَتِها فى كَفِّهِ كُرَةً ... وبَيْنَ رُؤْيَتِها قَوْرَاءَ كالقَمَرِ
إلا بمقـــدار ما تَنْدَاحُ دائرةٌ ... فى لُجَّةِ الماءِ يُلْقَى فيه بالحَجَرِ

وقوله فى هجاء بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يُتوقع منه خير :

سألتك فى أمرٍ ، بَخِلْتَ ببَذْلِهِ ... على أنّنى ما خِلْتُ أنك تفعلُ
وألزمتنى بالبذل شكرًا ، وإنه ... علىّ من الحِرمانِ أدْهَى وأعْضَلُ
وما خلتُ أنّ الدهرَ يثنى بِصَرْفِهِ ... إلى أن أرَى فى الناسِ مِثْلَكَ يُسْأَلُ
لئن سَرَّنى ما نِلتُ منكَ فإنه ... لقد ساءنى أن كُنْتَ مِمَّنْ يُؤَمَّلُ

وقوله :

وإذا امرؤٌ مدَحَ امرأً لنَوالِهِ ... وأطال فيه فقَدْ أطالَ هجاءَه
لو لم يُقَدِّر فيـه بُعْدَ المُسْتَقَى ... عند الورود لما أطال رِشاءَه

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ابن المعتز

هو أبو العباس عبدُ الله ابن أمير المؤمنين المعتزّ بالله .

وُلِد سنة ٢٤٧ هـ ونشأ بسُرَّ مَنْ رأى وبغداد ، وقرأ النحو على المبرّد من البصريين وثعلب من الكوفيين ، وقرأ الأدب وعلوم الأوائل على مُؤَدِّبه أحمد ابن سعيد الدمشقي ؛ فخرج أديبا شاعرا بليغا مؤلفا معدودا من كبار علماء اللغة والأدب والتاريخ ، ولذلك خاف أصحاب السلطة في الدولة من الترك والحجّاب والوزراء أن يُولّوه الخلافة فيَكُفّ أيديَهم عن الخيانة والفساد ، ووَلّوْا المقتدرَ صبيا خاضعا لأمرِ نساء القصر ؛ فاضطربَ بيتُ أمور الدولة ، وثارت الفتن ؛ فألّفَ محمد بن داود بن الجراح حِزْبا من العلماء والفضلاء وخَلَعوا المقتدر ، ووَلّوْا ابن المعتزّ الخلافة . وبعد يوم وليلة ثار غلمان قصر المقتدر ومشايعوه وصدقوا حملتهم على أشياع ابن المعتز ، فانهزموا . وقبضوا على ابن المعتز فخنقوه ودفن في تَربة بإزاء داره سنة ٢٩٦ هـ .

ويمتاز شعر ابن المعتز بالرِقّة والسهولة وجَوْدة استعمال المحسّنات البديعية وحسن التشبيه والاستعارة وغلبة الأوصاف عليه ، وبخاصة وصفُ القصور والبساتين ومجالس الأنس والصيد والوحش والطير والهلال وكواكب السماء .

ومن ذلك قوله في وصف الهلال :

وانظرْ إليه كزورقٍ من فضّةٍ ... قد أثقلته حُمولة من عَنْبَرِ

ومن حسن ابتداءاته قوله :

أخذتْ من شبابيَ الأيامُ ... وتولّى الصّبا عليه السلامُ
وارْعَوَى باطلي فبانَ حديثُ النـ ... ـفسِ مني ، وعفّتِ الأحلامُ

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وقوله فى الغزل :

مَنْ لى بقلبٍ صِيغَ من صَخْرة ... فى جَسَدٍ من لؤلؤٍ رَطْبِ

جَرَحْتُ خَدَّيْهِ بِلَحْظِى فما ... بَرِحْتُ حتى اقتَصَّ مِنْ قَلْبِى

ولابن المعتز كثير من المؤلفات البارعة فى الشعر والأدب والأخبار والصيد والغناء .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الكتابة

لا نقصد بالكتابة التي نُريد بها مُجرَّدَ الفنّ ، بل الكتابة الفنية التي يُرادُ بها أصل الغرض منها المأتي فيها وإخراجها في صورة كلامية بديعة أو محكمة تحدث في النفس ارتياحا لها أو إعجابا بها . وهذه قسمان :

كتابة أدبية — وتشمل الرسائل السلطانية التي كانت تصدر من ديوان الرسائل الدولة ، والرسائل الإخوانية التي كان يكتب بها بعض الأصدقاء إلى بعض في تهنئة أو تعزية أو شفاعة الخ ، والرسائل الأدبية المطولة التي كان يكتبها البلغاء في شأن من شؤون الدولة أو شؤون الرعية : بنصيحة ، أو إرشاد ، أو تأييد مذهب ، أو تفضيل فريق على فريق ، أو في بعض الترويح عن النفس : كالقصص والمقامات والسير والأخبار والأسمار والطرائف ، وذلك كما في رسائل ابن المقفع التي كان يكتبها بلسان الدولة ، وتقرأ في خراسان تأييدا للدعوة العباسية والحث على طاعة الخليفة ، وكرسائل الأدب الصغير والكبير . ورسالة الصحابة لابن المقفع ، وكرسائل الجاحظ وكتبه الأدبية الكبيرة من أمثال كتاب البخلاء والحيوان الخ .

كتابة علمية — وهي الكتابة التي تكتب بأسلوب على خاص بالعلم الذي يؤدى بها حاملة باصطلاحات هذا العلم ، مُراعًى فيها الترتيبُ العقليُّ والقياسُ المنطقيّ وتحرير العبارة من الحشو والفضول ووضعها بطريقة تناسب : إما المبتدئين وإما المنتهين . وهي المسماة بالكتابة التأليفية أو كتابة التصنيف والتدوين .

ومهمّ مؤرّخ الأدب البحثُ في خصائص الكتابة الأدبية الفنية لا العلمية ، لأن الأدبية هي مظهر من مظاهر الجمال ومُتعة من مُتع النفس ، وإنما نذكر

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فى تاريخ الأدب الكتابة العلمية ونشأة العلوم باعتبارها مصدر الثقافة العامة التى تمثل فيها حياة الأمة العقلية ، فيكون الأدب مرآة لهذه الحياة ولسانا معبرا عن مبلغ تأثير هذه الحياة فى نفوس الخاصة والأدباء من الأمة .

وإليك وصفا مجملا لأحوال الكتابة الأدبية فى العصر العباسى الأول نتبعه بوصف مجمل أيضا للكتابة العلمية ونشأة العلوم فى هذا العصر :

الكتابة الفنية الأدبية أو كتابة الترسل — كانت الكتابة الفنية الأدبية فى أواخر الدولة الأموية قد أوشكت أن تصير فى دواوين الدولة صناعة عتيدة وعند الأدباء رغيبة محبوبة ، بما أدخله عليها سالم وعبد الحميد وحلبتهما التى أدرك كثير منها الدولة العباسية : من وسائل التنسيق والتنميق التى هيأتها أن تصير فى صدر الدولة العباسية صناعة من أشرف الصناعات الأدبية ، وصار لها من ذلك الحين فحول ونوابغ نهضوا بها إلى مستوى يُوائم عظمة هذه الدولة فى العلم والأدب والسياسة والحضارة ، وبذّوا فحولَ الشعر ونوابغَه فى عُظْم الجاه والرياسة وافتراع مناصب الدولة ؛ إذ كانت الكتابة جامعة لكلتا الحسنيين : الأولى قيامها بحاجة الحضارة والشؤون الديوانية ، والثانية كونها مظهرا من مظاهر الكمال والجمال للغة العربية . وإنما يقوم الشعر بثانيتهما دون أولاهما .

ولبلوغ الكتابة هذه المنزلة من القوة فى هذا العصر أسباب :

(١) منها إقبال كثير من العرب والمستعربين على استظهار القرآن والاستعانة بجل نظم آياته فى تدبيج كلامهم ، والاقتباس منه ، والاهتداء بمعانيه وأسلوبه وأمثاله وتشبيهاته .

(٢) ومنها استظهارهم كثيراً من الحديث النبوى وخُطَب النبى والخلفاء الراشدين وولاتهم وقواد جيوشهم الفاتحين ورسلهم إلى ملوك العدو أو ولاته أو قواد جيوشه ، وخُطَب خلفاء بنى أمية وولاتهم من أمثال زياد والحجاج والمهلب وأولاده

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ومسلم بن قتيبة وخالد القسرى، وخطباء الأمصار والقبائل والخوارج من مثل سحبان وابن القرّيّة وعمرو بن الأهتم وخالد بن صفوان وعقال بن شبّة وقطرىّ بن الفجاءة وأبى حمزة الخارجى الإباضى وأضرابهم من فحول الخطباء والبلغاء مما مُلِئَتْ به كتب الفتوح والمغازى والسير والتاريخ، ويُصَدِّق ذلك أنه قيل مرة لعبد الحميد: ما الذى مكّنك من البلاغة ؟ قال : " حفظ كلام الأصلع " يريد به أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

(٣) ومنها استظهار كتب النبى وخلفاء بنى أمية وولاتهم فى معاهداتهم، ومشارطاتهم وعهود توليتهم الولاة وأمراء الجيوش الجامعة لكثير من الوصايا البليغة والأحكام السياسية والشرعية .

(٤) ومنها رُقِىُّ الثقافة العامّة عند العرب والمستعربين بمدارستهم آداب الإسلام الممثلة فى القرءان والسنة والخُطَب والكُتُب الآنفة الذكر ، وبمدارستهم الثقافات الأدبية والعلمية المنقولة عن الأمم العريقة فى الحضارة والمدنية ووضع العلوم والنظم السياسية والإدارية كالفرس والهنود والروم وقدماء اليونان والكلدان، حتى تكونت فى نفوس الأمة ثقافة ممتزجة مؤلفة من حضارات أمم شتى سُمِّيَتْ بعد بالثقافة الإسلامية ، إذ كانت لا تُمَثِّل أُمَّة دون أخرى ، وكانت مُتَمَثِّلَةً بالروح الإسلامىّ فى كل مظاهرها .

وقد تجلّت صورتها فى الكتب البليغة التى صدرت عن خلفاء الدولة ووزرائها ورؤساء دواوين رسائلها وعن كبار الأدباء والمؤرخين فى هذا العصر .

ويمكننا أن نعرف مبلغ هذه الكتابة من القوة بمعرفة بعض موضوعاتها المتنوعة وما تميزت به من محاسن الصناعات الكلامية :

موضوعاتها — خاضت الكتابة الفنية الأدبية فى هذا العصر موضوعات شتى منها :

www.dar-alkotob.com دار الكتب

(١) الأعمال الديوانية من مثل كُتُب البَيْعات للخلفاء وأولياءِ العهد وعهود الولاة والقضاء والمنشورات السياسية والدينية .

(٢) تأييد بعض المذاهب السياسية والدينية أو تأييد سياسة الدولة .

(٣) الحث على التمسك بالآداب الشريفة والأخلاق الفاضلة .

(٤) تفضيل طائفة من الناس على طائفة .

(٥) القصص والسمر والحكاية على ألسنة الحيوان ونحو ذلك مما كتب فيه رسائل بليغة مطولة أو كتب حافلة .

(٦) التوصية والنصيحة من أستاذ صناعة لأربابها ، أو أصحاب نِحْلة لمنتحلها ، أو من أب لابنه ، كما فى رسالتى سهل بن هرون والكندى فى البخل ووصية طاهر بن الحسين لعبد الله ابنه .

ومن مميزات هذه الكتابة فى اللفظ والأسلوب والمعانى :

(١) اختراع المقدمات فى أوائل الرسائل المطوّلة وبعض العهود والمنشورات مما لا يزال أثره باقيا إلى الآن .

(٢) تنوع عبارات البدء للرسائل ، فمن تحميدات متعددة لله تعالى فى الرسائل السلطانية المطوّلة ، ومن محاكاة لكتب النبى صلى الله عليه وسلم فى الرسائل الصغيرة من مثل : "من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان ومن قبله من المسلمين سلام عليك أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأن الأمر كذا وكذا" .

وزاد الرشيد بعد الحمد الصلاة على النبى ؛ وزاد الأمين تكنية الخليفة . ومن الابتداء (بأما بعد) فقط أو مع الدعاء للمكتوب إليه أو بلفظ (كتابى إليك) وغير ذلك .

(٣) سهولة العبارة وانتقاء ألفاظها وجودة رصفها .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

(٤) التلوق طرق الإيجاز والإطناب على حسب مقتضى المقامات .

(٥) دقة المعانى واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى استخراج البرهانات والنتائج والأحكام فى سبيل الإقناع .

وجملة القول أن الكتابة الأدبية بلغت فى هذا العصر غاية لم تُسْعِدها المقادير بعدُ أن تتعداها . نسأل الله لها كَرَّةً تُعيدُ بها مجدها وتبلغ غايتها .

(راجع أمثلة كل أنواع الكتابة فى المنتخب بجزأيه)

وإليك تعريفات ببعض أشهر كتاب هذا العصر فنهم :

www.dar-alkotob.com دار الكتب

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عَمْرو بن مَسْعَدَة بن سعيد بن صُول أبلغ كُتّاب الإيجاز .

وهو ابن عَمّ إبراهيم بن العباس الصُّولِيّ الآتى ذكره بعد . وجَدُّهما صُولٌ تركىّ من أشراف جُرجان أسلم على يد يزيد بن المهلب بن أبى صُفْرة فى أثناء فتوحه بخراسان ، وخدم أحفاده فى دواوين الدولة العباسية ؛ فكان عَمْرُو هذا كاتب التوقيعات بين يدى الوزير جعفرٍ البرمكىّ وزيرِ الرشيد ؛ وظهرت له نجابته وهو صغير ، قال عن نفسه : كنت أُوَقِّعُ بين يَدَىْ جعفر ، فَرَفع إليه غلمانُهُ وَرَقَةً يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها إلىّ وقال : "أجب عنها" . فكتبت "قليل دائم خيرٍ من كثيرٍ منقطع" فضرب بيده على ظهرى وقال : "أَىُّ وزيرٍ فى جلدك !"

وصَدَّقت الأيامُ فيه ظَنَّ جعفر فصار بعدُ أَحَدَ وُزراء المأمون الثقات عنده ، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه .

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة أَذَنة (هى المسيحة عند سكانها الآن — أطنة) سنة ٢١٥ هـ .

ومن رسائله الموجزة ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص :

" كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، مُعْنىً بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية مُوَصَّله " .

وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره :

" كتابى إلى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم " فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه وأمر للجند قِبَلَه بعطائهم لسبعة أشهر .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

إبراهيم الصولى

هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول أشهر كتاب العراق فى زمنه . وهو ابن عم عمرو بن مسعدة المتقدم ذكره .

واشتهر من بنى صُول بعدهما أبو بكر بن يحيى الصولىّ الشَّطْرَنجىّ أبرع لاعبى الشَّطْرَنج فى زمنه وأحد كبار الأدباء والمؤلفين وله كتاب الوزراء وغيره من المصنفات .

وكان إبراهيم هذا شاعرا يتكسب بالشعر فى أول أمره ويقصد الرؤساء ، وكان يتشيع لآل على بن أبى طالب .

فلما بويع المأمون بالخلافة فى خراسان ، وعهد بها من بعده إلى علىّ بن موسى الرضا العلوىّ رحلَ إليه إبراهيم بقصيدة يمدحه بها فأجازه ، واتصل هناك بذى الرياستين الفضل بن سهل بفعله من كتاب الدواوين فى الدولة ، وبَقِىَ فى خدمتها حتى كان زمن الواثق عاملا على الأهواز ، فاتهمه وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيات بخيانة وحَبَسَه . وكان ابن الزيات صديقا له من قبل فكتب إليه كتبا وقصائد ومُقَطَّعات يستعطفه بها فلم تُجْدِ شيئا إلى أن بلغ الواثقَ أمْرُه فكَفَّ يَدَه عنه ، وعاد إلى خدمة الدولة . وكان زمن المتوكل رئيسا لديوان الضياع والنفقات .

وكان إبراهيم كاتبا بليغا لا يستعمل معانيه البديعة إلا من فكره وقريحته ، وقلما اقتبس معنى بديعا من غيره . وكان له قدرة على أن يكتب فى كل الأغراض وفى الإيجاز والإطناب والتوسط .

ومن رسائله الموجزة كتابُ وصاةٍ بإنسان وهو :

" فلان ممن يزكو شُكْرُه ، ويحسنُ ذِكْرُه ، ويُثْنَى بأمره ، والصنيعة عنده واقعة موقعها ، وسالكة طريقها .

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا إصابةُ شكرٍ لم يَضِعْ مَعَهُ أجرُه"

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص الخارجين عليه والداعين إلى العصبية وهى :

"أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حَقِّ الله عليه فيما قَوَّمَ به من أَوَدٍ ، وعَدَّلَ به من زَيْغٍ ، ولَمَّ به من منتشر ، استعمالَ ثلاثٍ يُقَدِّمُ بعضَهن على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيهٍ وتوقيف ، ثم ما يَسْتَظْهِرُ به فى تحذيرٍ وتخويف ، ثم التى لا يَقَعُ بِحَسْمِ الداءِ غيرُها :

أناةً فإن لم تُغْنِ عَقَّبَ بَعْدَها وَعِيدًا فإنْ لم يُغْنِ أَغْنَتْ عزائمُهْ"

عجِبَ المتوكل من حُسْنِ ذلك ، فَأَوْمَأَ إلى عُبَيْدِ الله بن يحيى بن خاقان : "أما تسمَعُ ؟" فقال : "يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةً خبأها الله لك ، وذخيرة ذخرها على دولتك" .

ولإبراهيم ديوانُ شعرٍ لطيف أكثره مُقَطَّعات .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

التأليف والمؤلفون

التأليف فى العلوم الدينية :

قد عَرَفْتَ فيما تقدم أنه لم يُدَوَّنْ فى عصر بنى أمية من العلوم على وجه الصحة واليقين إلا النحو فى رسائل صغيرة ، وإلا الحديث فى الكتاب الذى أذن عمر بن عبد العزيز لبعض مُحَدِّثى زمانه فى جمعه ، وإلا ترجمة كُتَّاش أهرون فى الطب . وما يُنسب إلى الصحابة والتابعين من الكتب فى التفسير وعلوم القرءان فليس إلا مجموع رواياتٍ منقولةٍ عنهم صحيحة أو ضعيفة ، جَمَعَها ودَوَّنها بعضُ علماءِ الدولة العباسية، وسَمَّوْا كتبها باسم الصحابى أو التابعى الذى رُوِيَتْ عنه هذه الروايات كتفسير ابن عباس المطبوع بمصر المروىّ عنه من طُرُقٍ ضعيفة . وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى عصر بنى أمية علماء وأئمة فى الدين فى مَكِنَتِهم تأليفُ الكتب الجامعة ، ولكنهم كانوا يحجمون عن التأليف لأنه لم يؤثر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه أمرٌ صريحٌ صحيحٌ بتدوين كتبٍ فى الدين غير القرءان ، فكانوا يَرَوْنَ التأليفَ بدعةً فى الإسلام ، فاكتفوا بالرواية والحفظ فى الصدور تحرُّجًا وتأثُّمًا من أن ينشروا شيئا لا يعلمون عِلْمَ اليقين مَبْلَغَ صحته .

الفقه — وجاءت الدولة العباسية وقد فَنِىَ كُلُّ الصحابة وجمهور التابعين ، وفيهم حَمَلَةُ الدين ورُوَاتُه ، فمات معهم علمهم وروايتُهم . وخَلَفَ مِن بَعْدِهم خَلَفٌ مُؤَلِّفٌ من علماء أخلصوا دينهم لله ، ومنافقين استغلوا تسامُحَ العباسيين مع الأمم الأعجمية ، فأخذوا يكيدون للإسلام سِرا وجهرا بوضع كثيرٍ من الأحاديث المكذوبة فى التفسير وأصول الدين ، فخشِىَ أئمةُ الأمة وعلى رأسهم الخليفةُ أبو جعفر المنصور أن يغلب كذبُ المنافقين على صِدْق

www.dar-alkotob.com دار الكتب

المنصور ، فحج المنصور سنة ١٤٣ هـ وكلف الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة جمع كتاب جامع للأحاديث التي صحت عنده في الفقه وأصول الدين ، فألف كتابه الموطأ ، فكان ثاني كتاب أُلِّفَ في الحديث الصحيح والفقه بعد الكتاب الذي أمر عمر بن عبد العزيز بنشره . ولكن الموطأ شاع وذاع ورضيته الأمة ، فكان أساسا لكتب الفقه التي أُلِّفَتْ بَعْدَه . وبقي إلى وقتنا هذا . وطُبِع مرارا . فهو أقدم كتاب في الدين معروف للمسلمين .

ومالك هذا هو إمام دار الهجرة . مالك بن أنس الحميري الأصبحي . وُلِد سنة ٩٥ هـ بالمدينة ونشأ بها وأدرك خيار التابعين فأخذ عنهم حتى صار حجة من حجج الله في أرضه ، وانتشر مذهبه في بقاع الأرض وخاصة المغرب والأندلس وصعيد مصر وتوفي سنة ١٧٩ هـ بالمدينة .

واشتهر قبله بقليل من أئمة الفقه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ولم يؤثر عنه على الصحيح كتاب في الفقه ، وإنما رَوَى عنه مَذْهَبَه أصحابُه ، وأخصهم أبو يوسف يعقوب الشيباني قاضي القضاة ببغداد وأول من لُقِّبَ بهذا اللقب ، ومحمد بن الحسن ، وقد ألَّفَا بعده . ويروى عن محمد كتاب المبسوط أصل كُتُب الحنفية ، وانتشر مذهب أبي حنيفة في العراق وفارس وخراسان وبلاد الترك والهند والصين وبعض بلاد الشام ومصر وتوفي سنة ١٥٠ هـ .

ومن تلاميذ مالك في الفقه عالم قريش أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي وُلِد بمدينة غَزَّة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ ورحل إلى مكة صغيرا ، ونشأ بها ، وأقبل على تعلم العربية والشعر والأدب ، ثم انصرف إلى الفقه فرحل إلى مالك بالمدينة ودرس عليه كتابه الموطأ ، ثم رحل إلى اليمن وتولى بعض أعمال الدولة ، فاتُّهِم بمالأة العَلَوِيين ، فحُمِلَ إلى العراق زمن الرشيد فَشُفِّعَ فيه . ونقل كثيرا من علم أهل العراق وطريقتهم في القياس ، وكوَّن مذهبه في الفقه ،

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ودخل الشام ومصر وبها مات سنة ٢٠٤ هـ وانتشر مذهبه فى بعض مدن العراق والشام والحجاز واليمن وجزائر البحر المتدى ومصر وغيرها .

وأخذ عنه أحمد بن حنبل الشيبانى من أكبر أئمة الحديث ببغداد . وولد بها سنة ١٦٤ هـ وطلب الحديث فى أكثر البلاد الإسلامية حتى جمع فى كتابه المسند الذى يعتبر أصلا من أصول الإسلام أكثر من أربعين ألف حديث . ثم كون له مذهبا فى الفقه استمده من فقه الشافعى وغيره ومن نصوص الحديث وشابه شىء قليل من الرأى والقياس . وكان عامة أصحابه هم جمهور المحدثين والمقتفين أثر السلف والمناهضين لأهل البدع والإلحاد والمتفلسفة ببغداد ، ودخل فى مذهبهم عامة أهل بغداد فتشددوا على المُبْطِلين والفُسَّاق وأتوهم إفلاقا كبيرا ، وتتبع كثير من عامتهم فى ذلك ، حتى ضُرِب المَثَلُ بالحنابلة فى التشدد فى الدين .

وتوفى أحمد سنة ٢٤١ هـ ببغداد وانتشر مذهبه ببغداد والعراق والبصرة ونجد .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم الذين دخل فى مذهبهم أكثر أهل الأرض من المسلمين . وثمة مذاهب أخرى لبعض الأئمة المجتهدين من أهل السنة والشيعة والخوارج يتبعها كثير من المسلمين فى بقاع الأرض .

ولم يُعْنَ المسلمون بتعليم عنايتهم بالفقه والحديث، ولم تَقِلَّ العنايةُ بهما فى أى عصر حتى عصرنا هذا الذى كادت تنقرض فيه روايةُ الحديث من بعض الأمصار .

الحديث — واقتدى بالأئمة الذين كتبهم المنصور التأليف فى علوم الدين غيرهم من أهل الحديث ، فألفوا فيه عدة كتب ميزوا فيها الصحيح من المصنوع . وأشهرهم إمامُ المحدثين إسحقُ بن رَاهُوَيْهِ أولُ من جرَّد كُتُبَ الحديث من مسائل الفقه والتفسير وكانت قبل ممتزجة وتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

واشتهر بعده تلميذه شيخ الحديث وإمام السنة محمد بن إسماعيل البخارى فوضع بإشارة منه كتابه الجامع جمع فيه الأحاديث الصحاح فقط، وكانت الأحاديث قبل تجمع مختلطا صحيحها بضعيفها منبهاً على مرتبة كل منها . وهو من أصل فارسى ولد ببخارى سنة ١٩٤ هـ ونشأ بها يتيما فحفظ القرءان وشدا العربية وهو صبى وحبب إليه سماع الحديث وهو فى المكتب . وكان نادرة فى الحفظ والنقد ؛ فطلب الحديث من آفاق الأرض ؛ وحج وزار المدينة وصنف كتابه فى تاريخ رجال الحديث بها . ثم لما نضج علمه ألف كتابه الجامع جمع فيه نيفا وسبعة آلاف حديث مكرر بعضها بتكرر وجوهها ، فأجمع علماء السنة أنه لم يكن فيها أصح منه . ثم رجع إلى بلاده فمات بقرية يقال لها (خرتنك) على ثلاثة فراسخ من سمرقند سنة ٢٥٦ هـ .

ومن تلاميذه الإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى أحد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين ، ولد سنة ٢٠٦ هـ وأخذ عن البخارى وغيره من علماء الآفاق وجمع صحيحه المشهور الذى يعتبر ثانى كتب السنة فى الصحة . وتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ .

واشتهر بعد الشيخين البخارى ومسلم أربعة من الأئمة ألفوا كتبا فى الحديث تلى الصحيحين فى الصحة والاشتهار وهم :

الإمام الترمذى صاحب الجامع فى الحديث .

والإمام أبو داود صاحب السنن المنسوبة إليه .

والإمام النسائى صاحب السنن المنسوبة إليه .

والإمام ابن ماجه صاحب السنن . وكلهم من أهل القرن الثالث .

وهذه الكتب الستة هى التى اشتهرت فى الملة والإسلام بالصحة ويأتى بعدها الموطأ ومسند أحمد على خلاف فى ذلك .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وجاء بعد هؤلاء من لا يحصى عددهم من المحدثين . ولكثير منهم عشرات المؤلفات .

التفسير — أما التفسير وعلوم القرآن فَرُوِيَتْ أقوالٌ فيه ورسائل منه كثيرةٌ آخر عصر بنى أمية ، ثم أَلَّفَ علماءُ الدولة العباسية فى غريب القرءان ومتشابهه وقراءاته ورسمه وإعجازه كتبا مختلفة القيمة والحجم ، حتى جاء فحل المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ فى أواخر القرن الثالث فجمع كل ما صحت روايته عن رسول الله وأصحابه والتابعين فى تفسيره الكبير ، فكان أول كتاب عظيم صحيح وُضِع فى التفسير بالأثَر على مذهب السلف ، وتابعه فى خطته الثعلبى والواحدى ، ومنهم استمد كل ذى تفسير أثَرِىّ بعدهم .

علم الكلام — ومن علوم الملة الإسلامية علم الكلام ، وهو يبحث عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية والنقلية من نحو إثبات وجود الخالق وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والثواب بدخول الجنة والعقاب بدخول النار والإيمان بكل ما جاء به القرآن .

وكان الصحابة والتابعون لايخوضون بعقولهم فى هذه العقائد إلى أن فتحت بلاد الأمم التى لم تكن تدين بالإسلام ، فأسلم كثير منهم رياء ونفاقا ، فخاضوا فى العقائد ، وابتدعوا كثيرا من الضلالات والشبه ، ولم يجترءوا على إظهار خباثتهم إلا فى أواخر دولة بنى أمية عند ضعفها ، وفى أوائل الدولة العباسية لتساهلها مع الأعاجم . ولما استفحل أمرهم فى آخر حياة أبى جعفر المنصور أوصى ابنه المهدى ألا تأخذه هوادة فى تتبع أهل الزندقة والإلحاد وقتلهم بعد مناظرتهم ، إن ثبت عليهم كفر وكيد للإسلام ، فكان المهدى بعده يجمعهم مع علماء الدين للمناظرة ، فكانوا لا يقبلون منهم الأدلة النقلية عن القرآن والسنة فاضطروا إلى مناظرتهم بالأدلة العقلية ، واستخدموا المنطق آلة فى الجدل ، وسُمِّىَ علم إثبات العقائد بكلام الناس لا بكلام الله ورسوله (علم الكلام) .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

وكان المتكلمون يذهبون الى عِدّةِ مذاهب ، منهم الصفاتية الذين يثبتون لله صفاتٍ غيرذاته الكريمة ، والمعتزلة الذين ينفون هذه الصفات باعتبارها غير صفات البارى و يقولون إنه وصفاته حقيقة واحدة ، وكان هذا هو مذهب الدولة زمنا ، وأولهم واصل بن عطاء أول من اعتزل حلقة الحسن البصرى مخالفا له فى بعض تقريراته ، ومنهم النّظام والجاحظ وأحمد بن أبى دُواد .

وكان بجانب هذين المذهبين مذاهب كثيرة لأصحاب الحديث والشيعة ، إلى أن ظهر إمام المتكلمين أبو الحسن علىّ الأشعرى من سلالة أبى موسى الأشعرىّ ، ووضع مذهبا توسط فيه بين مذهب الصفاتية والمعتزلة وسماه مذهب أهل السنة ، فنسخ هذا المذهب أكثر المذاهب فى الاعتقاد ، وعليه الآن جمهرة المسلمين فى أنحاء الأرض .

وقد ولد أبو الحسن بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ وبها نشأ وتعلم ونشر مذهبه على منبر مسجدها الجامع وتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

التأليف فى العلوم اللسانية والنحو — جاءت الدولة العباسية ، وقد اشتغل بالنحو من البصريين طبقتان : طبقة أبى الأسود الدؤلى ومعاصريه ، والطبقة الثانية ممن أخذوا عنهم . ومن أشهرهم عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، وقد أدرك هذا عصر الدولة العباسية ، وألف عيسى كتابين مطولين فى النحو هما كتاب الجامع والإكمال ، واشتغل أبو عمرو بكل علوم اللغة من نحو ولغة وأدب وإقراء للقرءان على رواية خاصّة به ، وعليه تخرج الخليل بن أحمد مخترع علم العروض وعمل المعجمات اللغوية ، وسيد أهل الأدب على الإطلاق وشيخ سيبويه ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى .

ولد الخليل سنة ١٠٠ بالبصرة ، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وكان غاية فى تصحيح القياس النحوى وتفريع مسائله ، ولقّن سيبويه تلميذه علم

www.dar-alkotob.com دار الكتب

ما صَنَّف من كتابه العظيم أصل كل كتاب فى النحو . وبقى الخليل بالبصرة طول حياته متزهدا متعففا حتى مات سنة ١٧٤ هـ .

وأما سيبويه فهو فارسىُّ الأصل لزم الخليل أكثر أوقاته وجمع من علمه أعظم مُصَنَّف فى النحو سُمِّىَ (بالكتاب) وأكثر ما فيه معقود بلفظ الخليل . ولما مات الخليل تَصَدَّرَ للتدريس فكان إمام البصريين ، وذهب إلى بغداد وافدا على البرامكة ، فأخفق فى رحلته، فرجع إلى بلده البيضاء بفارس ومات سنة ١٨٠ هـ وسنه نيِّف وأربعون سنة ورَوى عنه تلميذه الأخفش كتابه وشرحه ، وبه انتشر فى الدنيا .

وأما الأصمعى فلم يقتصر على النحو وكان أكثر اشتغاله بالأدب والأخبار والملح والطرائف ، فأصبح بها مؤدبا ومسامرا فى دار الخلافة زمن الرشيد وحاز ثروة عريضة ، ومات عن سِنٍّ عالية سنة ٢١٦ هـ وله من العمر ١٠٧ سنة .

وتلت طبقة سيبويه والأصمعى عدة طبقات من النحاة البصريين .

أما النحاة الكوفيون فأول طبقة منهم طبقة معاذ الهَرَّاء واضع علم الصرف . وتقابل الطبقة الثانية من البصريين ، ومن أشهر أئمتهم الكسائى مؤدب الأمين فى النحو وتلميذه الفراء . وطبقاتهم متعددة كالبصريين . وبين نحاة البصريين ونحاة الكوفيين فروق فى وجوه القياس النحوى ، أهمها : أن البصريين يقدمون السماع على القياس ، ولا يروون إلا عن فصحاء الأعراب الذين يثقون بفصاحتهم

ولما زخرت بحور العلم ببغداد سكنها كثير من نحاة البصرة والكوفة واشتركوا فى تأديب أولاد الخلفاء والوزراء والقواد ودارت بين الفريقين مناظرات ومناقضات فى مجالسهم وفى المساجد فتولَّد من المذهبين مذهب ثالث فى النحو سمى مذهب البغداديين .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

اللغة — ولم يكن لمُريد تعلم اللغة العربية الفصيحة من المُوَلَّدين والأعاجم طريقٌ لمعرفة ألفاظها إلا حفظ القرءان والحديث وشعر العرب ومشافهة الأعراب؛ فوضع بعض العلماء فى كل منها كتبا تفسر غريبها ، ثم خطرت لعلماء اللغة فكرةٌ أخرى لضبط مفردات اللغة بشكل مُفَصَّلٍ مُبَوَّبٍ ، فوضعوا فى كل موضوع من الموضوعات التى تناولها الشعراء والكتاب رسائل تجمع الألفاظ الخاصّة بها وسَمَّوْها باسم موضوعها ؛ فقالوا كتاب خَلْقِ الإنسان — كتاب الخيل — كتاب الإبل — كتاب البخل والكرم — كتاب السَّرْج واللجام . الى أن ظهر ببغداد كتابٌ نُسِبَ إلى الخليل بن أحمد بعد موته بنحو أربعين سنة بشكل معجم رتبت الكلمات فيه على حسب مخارج الحروف من أقصى الفم فيبتدئ بحروف الحلق ويختم بحروف الشفتين ، ويبدئ فيه بحرف العين ، فسمى كتابَ العين . إلا أن ما وقع فيه من الخلط والخطأ الصرف جعل كثيرا من العلماء ينكرون نسبته إلى الخليل . والظاهر أن الخليل وضعه لأحد تلاميذه فى آخر حياته ، ولم يتمه ، فسافر به إلى خراسان وأتمه من عنده ثم نُقِلَ بعد حين إلى بغداد . ولكنه على أى حال وَلَّد فى العلماء فكرة عمل المعجمات المرتبة بترتيب الحروف فألف ابن دُرَيْد فى أواخر هذا العصر كتاب جمهرة اللغة ورتبه على ترتيب حروف المعجم ، فابتدأ بالألف ثم الباء ثم التاء إلخ . وأدرك عصره الأزهرى فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل ، ثم وُضِع بعد ذلك فى العصر الثانى الصحاح للجوهرى والمحكم لابن سيده من العلماء الأندلسيين وهذه هى أصول معجمات اللغة وما سواها فجمع لها أو اختصار منها .

العروض والقافية — وللخليل جزيل الفضل على العرب والعربية بضبطه أوزان الشعر العربى ، فحفظه بذلك من الاختلال والضياع . وقد اخترع هذا العلم اختراعا جملة واحدة ، وحصر فيه أوزان الشعر فى خمسة عشر بحرا ، وزاد عليه الأخفش بحرا واحدا .

www.dar-alkotob.com دار الكتب

أما القافية فقد سبقه بعض العلماء بالتكلم فيها إلا أنه هو أول من فصّل الكلام فيها .

فن الأدب — هو مدارسة الكلام العربيّ من قرءان وحديث وشعر ونثر لتهذيب النفس بما فيه وإشعارها بجمال اللغة . وكانت كتبه فى أوّل هذا العصر تبحث فى بعض الأغراض الخاصة كرسائل ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة وكتاب الأراجيز للأصمعى ، وأوّلُ كتابٍ جامع لفنونٍ كثيرة منه هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب المنظوم والمنثور لتلميذه أحمد بن طيفور فى أربعة عشر مجلدا ، ثم كتاب الكامل والروضة للمبرد ، ثم تتالت كتب الأدب كبيرةً وصغيرة .

التأليف فى فنى التاريخ والجغرافية — أخذ العلماء منذ صدر الدولة العباسية يبحثون فى التاريخ من نواحٍ شتى لارتباطه برواية ألسنة وجباية الخراج وسياسة الملك كفنّ السير والمغازى . وأوّلُ مَن ألف فيها محمد بن اسحق . وفن فتوح البلدان ، وأشهر من ألف فيه الواقدى والمدائنى وأبو مِخْنَف . وفنّ طبقاتِ الرجال ، وأشهر علمائه القدماء ابن سعد كاتب الواقدى والبخارى . وفنّ النسب ، وأشهر علمائه الكلبى وابنه . وفنّ أخبار العرب وأيامها ، وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصمعى . وفن قصص الأنبياء ، وكتب فيه كثيرون . وفنّ التاريخ العام السياسى الخاص بأعمال الدول ، ومن أقدم كتبه المطبوعة تاريخ ابن واضح اليعقوبى ، ومن أكبرها تاريخ محمد بن جرير الطبرى رتب حوادثه على السنين الهجرية .

أما الجغرافية المفسَّرة بلفظ (وصف الأرض) فإن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون من وصف بلادهم ومواطنهم ما لا تعرفه أى أمة من وصف بلادها ، يعرف ذلك من اطلع على وصفهم المنازل والقفار فى شعرهم . ولما جاء الإسلام وامتدت فتوحهم من حدود الصين والهند إلى المحيط الأطلنتى وترددت جيوشهم وقوافلهم

www.dar-alkotob.com دار الكتب

فى هذا الملك العريض تعرفوا طرقه ومسالكه وأنشئوا طرقا جديدة أصيلة ، وكانوا يسمون هـذا الفن بعلم المسالك والممالك ، وهو الجغرافية الوصفية التخطيطية . ولكن الجغرافية الرياضية الباحثة فى شكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، فقد نقلوه فى صدر الدولة أولا عن الهنود فى كتاب السندهند الذى نقله عن الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى زمن المنصور ، وثانيا عن اليونان القدماء فى عدة كتب أخصها كتاب المجسطى لبطليموس الذى نقله الحجاج بن مطر المأمون ، وصحح العرب كثيرا من أغلاطه زمن المأمون وبعده . وحققوا من ذلك الحين كُرَوِيَّة الأرض ومحيطها ودرجاتها ومقدار الدرجة الأرضية .

ونبغ فى الجغرافية بعد عصر المأمون أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خُرداذبة ، وكان واليا على البريد والخَبَر بنواحى جبال طبرستان ، ثم نادم الخليفة المعتمد ، واختص به ، وله فى الجغرافية كتاب المسالك والممالك ، وهو مشهور .

وغَبَرَ العلماء بقية هـذا العصر الأول يحققون ويصححون هـذا الكتاب ، ثم تجروا فى الجغرافية الرياضية فى العصر العباسى الثانى ؛ ولكن معارفهم كانت قد اتسعت كثيرا فى الجغرافية التخطيطية فى العصر الأول .

لمحة فى الترجمة والمترجمين — لم يصح عن العرب زمن الدولة الأموية أنهم ترجموا من كتب الأوائل إلا كتاش أهرون فى الطب ترجمها ماسَرْجَوَيْه طبيب مروان بن الحكم ، وأذاعها عمر بن عبد العزيز فى الناس . ولكن العرب والمستعربين والمسلمين كافة أصبحوا فى زمن الدولة العباسية بحاجة إلى الانتفاع بحضارات الأمم الغابرة وصناعاتهم ؛ فرغب الخلفاء العباسيون الأولون فى ترجمة السياسة والطب والرياضيات والفلك والتنجيم . فترجم لهم المقفع للنصور كثيرا من كتب الفرس فى السياسة وتدبير الملك والآداب وسير الملوك وترجم كتبا يونانية كانت نُقلت زمن كسرى أنو شروان إلى الفارسية فى المنطق والفلسفة . واستقدم المنصور بختيشوع الكبير رئيس أطباء جند يسابور وابنه وتوبخت وابنه أباسهل ،

www.dar-alkotob.com دار الكتب

والبطريق فترجموا له كثيرا من كتب الطب والحكمة والفلك والسياسة ، ثم فترت الترجمة بعد المنصور إلى أن أحياها البرامكة والرشيد ، فحثوا العلماء على ترجمة كتب كثيرة ، وصححوا بعض ما تُرجِمَ زمنَ المنصور .

ثم نهضت الترجمة فى عصر المأمون نهضة أتت على أكثر ماعُثِرَ عليه من كتب اليونان ، ومايق من كُتُب النبط ، وما وصل إليهم من كُتُب الهند والفرس ، وأكملوا تصحيح ما تُرْجِمَ من قبل ، وبعث المأمون إلى القسطنطينية بعثا يحذقون اليونانية ويختارون ما يرونه صالحا للنقل إلى العربية ، وكان منهم الحجاجُ بن مَطَر وسَلْمٌ صاحبُ بيت الحكمة ، وابن البطريق ، وحُنَيْنُ بن اسحق . فاختاروا كتبا كثيرة حملوها إلى بغداد وترجموها ، وتعلّمها الناسُ منهم . ونشأت طائفة من الأطباء والفلكيين والرياضيين استقلوا بعلومهم ، فوصلوا إلى مرتبة النبوغ فى هـذه العلوم ، ومنهم بنو موسى بن شاكر محمد واحمد والحسن أشهر رياضيّ هذا العصر ، وأوّلُ مَنْ ألّفَ فى علم الحيل والآلات من المسلمين (الميكانيكا) . ومحمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر ومذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب . وفيلسوفُ العرب والإسلام أبو يوسف يعقوب الكندىّ وتلميذه أحمد بن الطيب السَّرَخْسِىّ وغيرهم . ولم ينته هذا العصرُ حتى أصبحت هـذه العلوم ملكة راسخة فى أهل الملة الإسلامية ، وامتزجت بحياتهم وأدبهم وبحثهم ، ونبغ فيهم الطبيب الكيميائى الأكبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ هـ والمعلم الثانى أبو نصر الفارابى وأدرك العصر العباسى الثانى ، وعاش فيه دهرا ، وسيذكر بعدُ .

ومن أشهر المترجمين بعد عصر المأمون أبو بشر متا بن يونس وثابت بن قُرّة الصابئ وأبو عثمان الدمشقى .

ومن أشهر الكتب التى ترجمت أو وضعت فى الفلك كتاب السند هند (أى الدهر الداهر) ترجمه من الهندية كما تقدم محمد بن ابراهيم الفزارى العربى الصميم ، وبقى هذا الكتاب معمولا به إلى زمن المأمون .

القسم الثانى

العصر العباسى الثانى

العصر العباسى الثانى

أولا ـ عصر النفوذ التركى :

التحول من الفرس الى الترك : فى العصر العباسى الاول ، كان العباسيون قد استعانوا بالموالى فرسا وعربا للتخلص من النظام الاموى حتى استولوا على السلطة واستبدوا بها ، واستذلوا الشعب بالضرائب الفادحة ، وقلدوا الفرس المناصب العليا وجعلوا منهم الوزراء والقادة ، ثم نكبوهم بالنكبات الجسام كنكبة البرامكة ونكبة بنى سهل ، حتى قام عداء شديد بين الفرس وبين العرب يريد العرب فيه أن يستعيدوا مجدهم التليد فى العهد الاموى ويريد الفرس فيه أن يزيدوا من المجد الطريف فى العصر الحالى مما خلق تيارا شعوبيا لهدم العروبة ، يرافقه تيار الحادى لهدم الاسلام . وشبت الثورات فى شرق البلاد وكان آخرها ثورة "بابك الخرمى" فى أذربيجان التى استمرت عشرين عاما حتى أطفأ نارها المعتصم الذى أخذ يعد العدة لتحول جذرى من الاستعانة بالفرس الثائرين الطامعين فى احياء مجدهم القومى الناشرين للالحاد والزندقة ، ووجد الفرصة سانحة للاستعانة بالرقيق فالتركى ، فقد كان فى ذلك الوقت يزداد توافده الى العراق وبغداد ، واستكثر من طلبة حتى ضاقت به بغداد مما اضطره الى أن يبنى لهم مدينة "سامراء" شمالى بغداد التى ظلت حاضرة للدولة حتى أواخر عهد الخليفة

العباسي المعتمد سنة ٢٧٦ هجرية

واذا كان بعض الشر أهون من بعض فشر الفرس كان أهون من شر الاتراك لان الفرس كانوا أصحاب مدنية وحضارة ، أثروا بهما على الحياة العربية ودفعوا الى نهضة حضارية أفادت منهم ومن الثقافات الاجنبية وأهمها اليونانية والفارسية ، أما الاتراك فكانوا بدوا لا حضارة ولا ثقافة لديهم ، فلا يعرفون صناعة ولا زراعة ، ولا يبدعون فنا ولا أدبا ، ولا يجيدون سياسة ولا نظام ملك وكل ما يمكن أن يستعان بهم فيه — الحرب والضرب ، والغارة وطلب الغنائم .

وقد هيأ لهم المعتصم فرصة القبض على أزمة الحكم ، وتصريف أمور الدولة وتسخير الخلفاء بحسب ما يريدون . وقد استعان المعتصم بالترك لتولي الخلافة والتمكن فيها ، لان خؤلته كانت فيهم ولانه كان يخشى أن يحول الفرس بينه وبين الخلافة .

وقد ولى المعتصم كبيرهم ويدعى "أشناس" مصر . ولما خلف المعتصم ابنه الواثق أطلق يد "أشناس" من بابه في بغداد الى أقصى أعمال الغرب وولى على الجانب الشرقي من يدعى منهم "إيتاخ" ولما لم يستخلف ولي عهد بعده أخذ "إيتاخ" البيعة للمتوكل الذي كان سببا في أن تصبح ولاية الخلفاء فيما بعد بيد الترك فحين أراد أن يفتك بالترك خفية منهم عاجلوه بقتله هو ووزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧هـ ومنذ ذلك الحين آل أمر الدولة كله للترك .

ولم يعد للخلفاء ذكر ، فكان الخليفة كالأسير في يد هؤلاء ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه ، فقد ولوا المنتصر الخلافة بعد أن قتلوا أباه ، وتوفي بعد ستة أشهر ، ثم اختاروا ابن المعتصم ولقبوه بالمستعين ثم خلعوه ، ثم بايعوا ولي عهد المتوكل وهو المعتز بالله ثم خلعوه ثم قتلوه ، وبايعوا محمد ابن الواثق ولقبوه بالمهتدي ، وحاول المهتدي أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في إقامة العدل والتقشف فضاق به الخاصة والعامة فقتلوه ، وقام ثورة الزنج فلا يستطيع قادتهم التغلب عليها فيضعف شأنهم ، ويتولى الخلافة المعتمد بن المتوكل ويتاح لأخيه الموفق ان يقود المعركة ضد الزنج ويقضي عليهم قضاء مبرما ، فتعود للخلافة العباسية هيبتها ويخضع الاتراك للمعتمد وأخيه الموفق ويموت المعتمد ويخلفه ابن أخيه المعتضد سنة ٢٧٩هـ فيزيد في إخضاع الترك ثم يخلفه ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ الذي ظلوا له خاضعين ، ولكنه أخطأ حين جعل ولاية العهد لابنه المقتدر وكان طفلا ، فلما توفي سنة ٢٩٥ خلفه وهو في سن الثالثة عشرة ، فلم يرتض الشعب وأخذوا البيعة لعبد الله بن المعتز ولكن الترك لم يمهلوه اكثر من يوم وليلة وأخذوه عنوة وقتلوه ، وعادت الخلافة الى المقتدر ، وعزله الترك وولوا مكانه أخاه القاهر بالله ، وكان أحمق لا يصحو من سكر فخلعوه وسملوا عينيه سنة ٣٢٢ .

بايعوا بعده ابن المقتدر الراضي بالله ،وكان شاعرا جوادا غير أنه لم يكن له رأي في ادارة شئون الدولة ،وظل حتى توفي سنة ٣٢٩ وخلفه أخوه المتقي بالله وكان تقيا ،غير أنه خلع عيناه وسملت عيناه ،ثم تولى بعده المستكفي بالله بن المكتفي ،ولم يمر عام حتى نزل مجز الدولة البويهي بغداد وطالبت أن خلعه وسمل عينيه ،وبه انتهى العصر العباسي الثاني ،واستولى البويهيون على السلطة ،وزالت سلطة الترك وقوادهم الى غير رجعة وهكذا ساد الترك وسيطروا على سياسة البلاد في العصر العباسي الثاني ،وكانت الخلافة الكبرى من الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧هـ) حين ضعفت ثقته بالعرب وقويت بالاتراك فأخرج العرب من ديوان الجيش،وأنشأ جيشا كبيرا من أرقاء الترك يستعين به على العرب وعلى الفرس أنصار الدعوة العباسية الاولى ،فأصبح جنود الترك بعد حين أصحاب الامر والنهي في الدولة على جهلهم وسفههم ،وتدخلوا في أختيار الوزراء والولاة والقضاء وأصحاب المناصب العليا بعد استطالوا على الخلفاء يقتلونهم ويسملون أعينهم ،ويعولون من يشاءون من الصبيان والمستضعفين من أبنائهم ، حتى اختل نظام الحكم وثار الشعب ،وكثر الشغب ،وأمتدت الثورات الى الاقاليم وعجز الخلفاء والمسيطرون عليهم من الاتراك عن إخمادها .

انقسام الدولة العباسية الى دول وامارات : حين رأى ولاة الاقليم ماعليه حال الاتراك الجهلاء السفهاء من محاولات السيطرة على الحكم ، والاوامر الخرقاء التى يملونها على الخلفاء لتصدر اليهم — وجدوا أنهم أحق بأقليمهم من الخلفاء المستضعفين والاتراك المستبدين ، فاستقل بعضهم بما ولى عليه وكان أولى بذلك ، الصنيع الفرس انظامعون فى استرداد ملكهم من أيدى العرب والاتراك ، فدعوا الى أنفسهم واستقلوا عن الخلافة منشئين دولا وامارات جديدة كالدولة السامانية فى خراسان ، والبويهية فى فارس وانتهى أمرهم بالزحف بجيوش الديلم والفرس على بغداد ، وانتزاع السلطة من الاتراك وكف أيدى الخلفاء عن تدبير أمور الملك .

كذلك استبد رؤساء القبائل العربية كبيل بولايته فى الفرات والجزيرة وشرقى الشام ووجد العلويون المطالبون بحقهم فى الخلافة من أيام خلافة يزيد بن معاوية .. وجدوا الفرصة سانحة فأخذوا ينشئون دولا وامارات بطبرستان والحجاز واليمن ، وأنشأ بعضهم وهم الفاطميون خلافة عتيدة امتدت من المحيط الاطلنطى الى شمالى الشام وشرقى الحجاز .

وهكذا انقسمت الدولة العباسية الى دول وامارات بعضها مستقل استقلالا كاملا ، وبعضها مستقل استقلالا داخليا فقط ، مع اعتراف ملوكها وأمرائها بخلافة خليفة بغداد ، فيتقلدون الحكم بتقليده ، ويخطبون

على المنابر باسمه وهذه بعض الدويلات التى ظهرت نتيجة لاستبداد الاتراك :

١ ـ الدولة الطولونية فى مصر والشام (٢٤٥ ـ ٢٩٢هـ)
٢ ـ الدولة السفاديه بفارس (٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ).
٣ ـ الدولة السامانية بفارس وماوراء النهر (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ)
٤ ـ الدولة الزيارية بجرجان (٣١٦ ـ ٤٣٤ هـ)
٥ ـ الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ).
٦ ـ الدولة البويهية بفارس شمس العراق (٣٢٠ ـ ٤٤٧هـ).
٧ ـ الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ).

ماقيل فى تصوير أحوال هذا العصر :

مما قيل من شعر وشعراء هذا العصر تصويرا لذلك التاريخ الاسود وسوء عمل الاتراك فيه :ـ

يقول دعبل الخزاعى يهجو المعتصم الذى فتح الباب واسعا للترك ليخربوا فى هذه الدولة ،فأتطعمهم القطائع وركن اليهم وصدرهم :

لقد ضاع امر الناس حيث يسوسهم "وصيف" و"أعناس" وقد عظم الخطب (١)
واني لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس قد يضر بها الغرب (٢)
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

وسجل البحتري مصرع المتوكل الفاجع برضى ابنه، وكان قد عزم على الفتك به وجوههم، لولا أنهم سبقوه وقتلوه .. يقول البحتري مبدعا

تغير حسن "الجعفري" وأنسه وقوض بادي "الجعفري" وحاضره (٣)
تحمل عنه ساكنوه فجأة فعادت سواء دوره وملاعبه
اذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحي القصر اذ ريح سربه واذ أعرت أطلاله وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهبته على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس، ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها، والملك يشرق زاهره

(١) وصيف: هو أحد كبار الترك الذين استمان بهم المتوكل وجعله صاحبه ولما عرف الترك أنه يريد أن يفتك به وحاجبه "بغا" الكبير، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولي عهده أعدوا له نفرا من أصاغر الترك دخلوا عليه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧هـ غير مراعين فيها عهدا ولا ذمة، واحلوا المنتصر ابنه عرش الخلافة مكانه وأعناس: كبير الاتراك كان قد ولاه المعتصم مصر، وجعل له الحق في ان يولي عليها ولاة من قبله، فكان يدعى له فيها على المنابر.

(٢) الغرب (بفتح الغين) القوم يشربون ويجتمعون على الشراب.

(٣) الجعفري: قصر بناه المتوكل وقصورا أخرى في مدينة بناها وسماها الجعفرية لينتقل اليها ويترك سامرا..

ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومقاصره ؟
وأين عبيد الناس في كل نوبة ... تنوب وناهي الدهر فينا وآمرة ؟
تخفي له مغالته تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنايا جنوده ... ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر المعتز من كان يرتجي ... له وعزيز القوم من عز ناصره
حلوم أضلتها الأماني وسدة ... تناهت ، وحتف أوهكته مقادره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى القاتك المجلان كيف أساوره
حرام على الراح بعدك أو أرى ... دما يدم يجري على الأرض مأثره
وهل أرتجي أن تطلب الدم واتر ... بدالدهر والموتور بالدم واتره
أكان ولي العهد أغدر غدرة ... فمن عجب أن يولي الجيش غادره
فلا ملي الباقي تراثه الذي مضى ... ولا حملت غلك الصباح متابره
ومن عجب أن البحتري الذي بأسي في هذه الأبيات أسى شديداه
وبعضه أن لم ينتصر المعتز لأبيه المتوكل حين عز ناصره ، ويأسف أن لم يكن بيده سيفه ساعة الفتك بالمتوكل ليقتل من قتله ، ويحرم على نفسه الخمر حتى يرى دم قاتلي المتوكل جاريا على الأرض ثأراً لدمه .. البحتري هذا يعتذر عن الترك ويشفع لهم عند المعتز حين يتولى الحكم فيقول مخاطبا اياه :

يامن له أول الدنيا وآخرها ومن بجود يديه يضرب المثـــل
أما الموالى
من يركب الخطر الصعب الذى ركبـــوا
بالأمس أويبذل النصر الذى بذلوا ؟
قد جاهدوا عنك بالأموال وافـــرة
وبالنفوس ، ونار الحرب تشتعـــل
فاسلم لهم مادعت يوما مطوقـــة
وليهنئوا لك ما جنت ضحى ابـــل

وما سلم المعتز ولكن الاتراك سلموا ، فما زالوا به حتى خلعوه وانتهكوا حرمة أمه ، وصادروها على أموالها ونفوها الى مكة ، فكانت تسمع وهى تدعو عليهم بصوت عالى : " اللهم أخر صالح بن وصيف كما هتك سرى وقتل ولدى ، وشتت شملى ، وأخذ مالى ، وغربنى عن بلدى ، وركب الفاحشة منى " .

والخطر الصعب الذى يذكر البحترى أنهم ركبوه ، والنصر الذى يذكر أنهم بذلوه يتمثل فيما ألحقوه المستعين من ارهاق ، ومضايقته حتى هرب الى بغداد ، وهناك وقف البغداديون مع المستعين فى حربه ضد المعتز متطلعين الى معونة خراسان ، ولابن الرومى فى هذه الحرب قصيدة يعنف فيها المعتز ، ومنها :

عجبت للمرء لايحمى حقيقته مسلوبة ،كيف يحمى بعدها السلبا
دع الخلافة يامعتز من كتب فليس يكسوك منها الله ماسلبا

ثم يقول :

هذى خراسان قد جاست حلائبها تزجى لنصر أخيها عارضا لجبا

ولكن خراسان لم ترسل المدد ،فهزم البغداديون ،وقتل المستعين لقد قتل الاتراك المتوكل : المستعين ،والمعتز والمهتدى والمقتدر وسملوا عيون : القاهر والمتقى ،ولابن المعتز أرجوزة فى تاريخ المعتضد ،وتسجيل ماله من أياد على الدولة ،صور فيها عسف الاتراك ،ونهبهم الاموال ،وهتكهم الاعراض ،ولقبهم بالخلفاء والكبراء وفيها يقول :

وكل يوم ملك مقتول أو خائف مروع ذليل
أو خالع للعهد كيما يغنى وذاك أدعى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش قد نقضوا عليه كل عيش
وكل يوم شغب وضرب وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقا يرونه دينا لهم وحقا
كذاك حتى أقفر الخلافة وعودوها الرعب والمخافة

وكان للخلفاء مع الاتراك رأى أو سلطان حتى فتح أكثرهم من امارة المؤمنين بالسكة والخطبة قبل ان "يحكم" التركي استكثر الامرين على الخليفة الراضي، فاقتطع أحدهما لنفسه وضرب دراهم ودنانير عليها صورته وحولها مكتوب :

"انما العز فاعلم للامير المعظم

سيد الناس "يحكم"

ثانيا : عودة النفوذ الفارسى أو عهد البويهيين (٣٣٤ـ٤٤٧هـ)

ذكرنا فيما سبق لمحة سياسية عن الحكم فى العصر العباسى الثانى فى جزئه الأول ـ وهو الجزء الذى ساد فيه النفوذ التركى ، بسبب استعانة الخليفة المعتصم بهم للأسباب التى ذكرناها أيضا وعرفنا أن الاتراك استبدوا بالحكم من دون الخلفاء وكانوا سببا فى ضعف البلاد أكثر مما ضعفت فى عهد سابقيهم من الفرس الذين سادوا فى العصر العباسى الأول .

ونذكر هنا فى الجزء الثانى من العصر العباسى الثانى عودة النفوذ الفارسى ، وهو ما يعرف بعهد البويهيين أو الديالمة من الفرس (٣٣٤ـ ٤٤٧هـ) ثم نذكر بعد ذلك فى الجزء الثالث من العصر العباسى الثانى عودة النفوذ التركى مرة ثانية ، وهو ما يعرف بعهد السلجوقيين من الترك (٤٤٧ـ ٦٥٦هـ) وهو نهاية العصرين العباسيين الأول والثانى .

وقد سبق سرد أسماء وتواريخ حكم الخلفاء العباسيين فى عهد النفوذ التركى الأول ابتداء من المعتصم (ت ٢٢٧هـ) وانتهاء بالمستكفى (ت ٣٣٤هـ) .

واستكمالا لأسماء وتواريخ حكم الخلفاء العباسيين بعد ذلك ، فى عهدى النفوذ التركى ثم النفوذ الفارسى ، أى حتى نهاية الدولة

العباسية سنة ٦٥٦هـ. نذكر هؤلاء الخلفاء وتواريخ توليهم الخلافة وهم :-

١ ـ عبدالله المستكفي بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ)
٢ ـ القاسم المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ)
٣ ـ ابو بكر الطائع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ)
٤ ـ أحمد القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ)
٥ ـ عبدالله القائم بأمرالله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ)
٦ ـ عبدالله المقتدي بأمرالله (٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ)
٧ ـ أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ)
٨ ـ فضل المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ) .
٩ ـ المنصور الراشد بالله (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ)
١٠ ـ محمد المقتفي لامرالله (٥٣٠ ـ ٥٥٥هـ)
١١ يوسف المستنجد بالله (٥٥٥ ـ ٥٦٥ هـ)
١٢ ـ حسن المستضيء بامرالله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ)
١٣ ـ أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ)
١٤ ـ محمد الظاهر بأمرالله (٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ)
١٥ ـ منصور المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ)
١٦ ـ عبدالله المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ).

نعرف أنه فى العصر العباسى الاوّل كان حكم العباسيين ينتظم الشرق الاسلامى كله الا خراسان التى انفصلت قبل حكمهم بقليل ، ولكنهم مازالوا بحمقهم وخرقهم حتى تمزقت دولتهم فأصبح الخليفة فى بغداد لايتبعه الا العراق والجزيرة العربية التى انهكتها الفتنة وثورات العلويين ، والزط الزنج ، والقرامطة ومازال القرس ينحينون الفرصة وسيطروا على الخليفة والخلافة بديلا عن الاتراك ، وأقاموا فى بغداد يتصرفون فى أمور الدولة باسم الخليفة ، غير حافظين عهدا ، أو مراعين للخلفاء حرمة ، بل سائرين بسيرة الترك منهم فى الاستهانة والتنكيل بهم ، فكان يخطب لهم على المنابر ، وتضرب أسماؤهم على الدنانير والدراهم ثم صادروهم على أموالهم ، وسملوا عيونهم وخلعوهم ، وبلغ من استهانتهم واستهتارهم بالخلفاء وخسة وضعة أفعالهم معهم ، أن أحتاج أحدهم وهو بهاء الدولة الى مال ، فدبر خلع الخليفة الطائع لله فاستأذنه فى الحضور لتجديد العهد له ، فلما دخل عليه قبل الارض بين يديه وجلس ، فتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة فلما بسطها اليهم — جذبوه عن سريره الديلم وهو يستغيث ، ونهبوا داره ، وامتهنوا من كان بحضرته من القضاة والاشراف ، وسلبوهم ثيابهم .

ويصف الشريف الرضي شعوره لما حدث وكان حاضرا ، فيقول من قصيدة له في ذلك :

لواعج الشوق تخطيهم وتضنيني ... واللوم في الحب ينهاهم ويغريني
من لي ببلغة عيش غير فاضلة ... تكفني عن أذى الدنيا وتكفيني
اذا ظننا وقدرنا جرى قدر ... بنازل غير موهوم ومظنون
اعجب بمكة عيني بعد ما رميت ... من النوائب بالابكار والعون
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى ... غيري ، ولم أخل من حزم ينجيني
مرقت منها مروق النجم منكدرا ... وقد تلاقت مسارب الردى دوني
من بعد ما كان رب البيت مبتسما ... الى ، فأدنيه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ... ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد خل ولاج أبواب السلاطين

وهذا الفعل الشائن بالخليفة الطائع شبيه بما حدث للخليفة المستكفي قبله ، وهكذا كان حال الخلفاء مع البويهيين الفرس ليس بأقل سوءا من حاله مع الاتراك ان لم يزد .. وما زالوا كذلك معهم حتى دالت دولتهم ، وتغلب السلاجقة الاتراك عليهم ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ .

وساروا مع الخلفاء سيرتهم الأولى وسيرة البويهيين حتى كانت غارة التتار على العراق وانتهاء الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ

في خلال فترة البويهيين ظلت الدولة الإسلامية مقسمة الأوصال مزقها من قبل سلجوقيون الوافدة إلى غيره من تربت عرقه منهم حتى أن يعود هي منها إلى حكم الخلافة في بغداد وهكذا ظهرت في العالم الإسلامي دويلات جديدة غير خاضعة على أيام الأتراك السلاجقة البويهيين الفرس وهي :-

١ — الدولة الغزنوية في الهند وأفغانستان (٣٥١ — ٨٢٧هـ)
٢ — الدولة الفاطمية في مصر والشام (٣٥٩ — ٥٦٧هـ)
٣ — الدولة السلجوقية في عاصمة والجزيرة (٤٣٨ — ٥٨٩هـ)
٤ — الدولة الزيدية من بني أسد في الحلة (٤٠٢ — ٤٥٠هـ)
٥ — الدولة المرداسية من بني كلاب في حلب (٤١٤ — ٤٧٢هـ)

وهذه الدول غير خاضعة بعد ذلك لاستبداد السلجوقيين مقربة من الدولة السلجوقية من سلالة وأمارات لأحفادهم وبالبيت وزادهم كالخوارزمية والأيوبية والأتابكية وغيرها موجز حلول الأيوبيين محل الفاطميين .

ظهر في هذا العصر أن الخلفاء كانوا ضعافا ومغلوبين على أمرهم وأن الأتراك والفرس تبادلوا معهم الاستبداد والاستيلاء الحقيقي على السلطة كما كانوا سادرين في غيهم ومشهم وفي تدبير المؤامرات لبعضهم وللخلفاء على أن الأتراك كانوا أميين لا يستذوقون طعم الأدب فلا يقحمون الأدباء أو الشعراء ولذلك لم تعد بغداد في عهد نفوذهم موطن جذب للعلماء أو الأدباء أو الشعراء لأنها فقدت التشجيع والكفاءة فارتحلوا عنها الى غيرها من العواصم العربية الأخرى ولكن ما لبثت بغداد أن استعادت أهميتها وجاذبيتها حين سيطر البويهيون الفرس على الحكم وانضمت الى بقية العواصم الأخرى التي ظهرت فيها دويلات جديدة منبثقة عن الدولة العباسية الأم فأصبح الى جانب الضعف العباسي العام في الدولة قوة أدبية وعلمية وصار يصارع بغداد في الشهرة العلمية والأدبية وقد يفوقها مدن مثل: القاهرة وحلب والري وبخارى ونيسابور وغيرها وأخذ ملوك هذه الدول وأمراؤها وقوادها ووزراؤها يتسابقون الى اجتذاب العلماء والأدباء ويجزلون لهم العطايا والهبات حبا في الشهرة وحسن الأحدوثة ونتيجة لما خلقوه من جو المنافسة — كثر الشعراء والكتاب والعلماء

عمارة اليمني — شاعر كبير سياسي " ولد سنة ١٥ هـ وقد طـــرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن " ثم حج سنة ٤٩ هـ فطلب منـــه والي الحرمين السفارة الى الدولة المصرية " قال : " فقد متها سنة ٥٥٠ والخليفة يومئذ الفائز ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما :

الحمد للمعبود بعد النبي والهـــي حمدا يقوينا أولت من النعـــم

وفي هذه القصيدة يقول :

فهل ترى البيت أنسى بعد زورته ما سرت من حرم الا الى حـــرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من غر ومن نقـــم
وللامامة أنوار مقدســـــة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تقيء لنـــــا على الخفيين من حكم ومن حكـــم

وفيها يقول :

أتممت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة وأجر البر في القســـم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما وزيره الصالح الفراج للغمـــم

وكان من أشهر أخلاق عمارة اليمني ، فلما قتل الصالح بن رزيك وجلس عاضد في دار الذهب مولى الحمراء والخضراء يدالين من يشي منه أن عمارة أن يصير بمجلة فكان مما قال :

وإنك لما لي بني رزيك واصبحت والحمد والشكر لربنا غير مصر

الى أن قال :

ولم يأخذوا منها ذل جانبه وانما عزلوا في سيفه الصارم
وما صمت يتمنى هلاك سوى عصابة فاسدين ولا ظلم
وما نصحت لي بيا بنيه لي برزق فضله الا أن يعد لي

تحكم عاضد وأشاور على الزمان ابن رزيك :

ولما زالت دولة الفاطميين مكان لهم مخلصا والصالح ذاكرا ، استلاقلب عمارة حزنا طبيعيا موجعة على ماضي أيامهم مرثية انطلق الى مدح صلاح الدين .

وما زالت ذكرى الفاطميين تعاوده مرالأنف طبيعي بيتاجيه حتى نظم قصيدته الشهيرة في رثاء دولتهم وتعد من أجود الشعر في رثاء الدول .

قال المقريزى : " وسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله وتحملت له الذنوب " وأول هذه القصيدة :

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

ومنها :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلافتها من المكارم ما أربى على الأمل

وفيها يندد بالفظائع التى أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الأقوى فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على ؟

(توفى سنة ٦٩٥هـ) .

الشعر في الشـــام

لما ضعفت الخلافة العباسية ،كانت الدولة الحمدانية تسيطر على الموصل وحلب وديار بكر ،وكان الحمدانيون عربا من قبيلـــة تغلب فكانوا يفهمون الشعر ،ويدركون ما فيه من روعة وجمال ،وكان من قبيلتهم في الجاهلية عمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات.

وسيف الدولة — ولي الموصل من قبل الخليفة المكتفي ،وحـــد سنة ٣٣٣هـ تغلب سيف الدولة على حلب ،وسيطر على شمال الشـام. وقضى مدة حكمه ،وكانت ثلاثا وعشرين سنة ،في طرد الروم مـــن حدود آسيا الصغرى ،ومقاتلة العرب الثائرين الطامعين في مملكتـــه وقد ظفر بالروم في وقائع كثيرة ،غنى المتنبي فيها بانتصاراته الباهرة . فأدرك دولته شيء من الضعف في أخريات أيامه ،وأصبح خلفـــاؤه عاجزين عن المحافظة على انتاراتهم الصغيرة من صولات الروم مـــن الشمال والفاطميين من الجنوب.

وقد ندهش حقا اذا نظرنا الى قصر مدة حكمه ،وضيق مـــوارد دولته ثم الى ماكان في عهده من نهضة كادت تعيد عهد الرشـــيد والمأمون فقد جمع ببلاطه أعاظم الأدباء ،وكبار الشعراء الذين كان من بينهم المتنبي الذي اتصل بقصره سنين ،وهو أشعر الشعراء ،ثم أبـــو فراس ابن عمه الفارس الشاعر الذي له كثير من القصائد الحماسية الرائعة

ومن أبياته التي قالها في الأسر تثير الحزن وتبعث الشجون ، ومن شعرائه السري الرفاء أكبر الواصفين وأبو العباس الناشئ وأبو الفرج البغاء وابن نباتة السعدي .

ومن اتصل بدولته أبو الفرج الاصفهاني ، الذي أهدى اليه كتابه " الأغاني " فوصله سيف الدولة بألف دينار ، واعتذر اليه لقلة الصلة وعظم الهدية .

وكان خطيب جيوشه عبد الرحيم بن نباتة الذي كان يثير حماسة الجند بروائع خطبه عند مصادمة الروم .

وعاش في كنفه فيلسوف الاسلام الأعظم أبو نصر الفارابي ونزل في داره كثير من علماء اللغة والأدب ، وأشهرهم ابن خالويه الذي كانت ترحل اليه الطلبة من جميع الأقطار .

وقد بذل سيف الدولة للشعراء المال الكثير ، لأنه كان عربيا جوادا أريحيا يهتز للمديح ، فنهض الشعر في عهده نهضة مباركة .

وروى التاريخ لسيف الدولة شعرا جيدا ونقدا في الأدب يدل على ذوق عربي مستقيم ، فمن جيد شعره :

رب هجر يكون خوف هجر ... وفراق يكون خوف فراق

ومات بحلب سنة ٣٥٦ هـ .

الشعر في مصر

حينما ضعف أمر الخلافة العباسية ، واستقلت امارتها كانت مصر والشام في يد محمد بن طغج الاخشيد منذ سنة ٣٢٣هـ من قبل أمير المؤمنين الراضي ، والشعراء في هذا العصر مغمورون لانكاد نحس منهم من أحد — وأظهر من نعرفه من الشعراء في هذا العصر ابن طباطبا

ومن قوله :

خليلي اني للثريا لحاسد ... واني على ريب الزمان لواجد
أبيت جميعا شملها وهي ستة ... وأفقد من أحببته وهو واحد

وفي سنة ٣٥٨هـ تغلب الفاطميون على مصر فملكوها ومدوا فتوحهم الى الشام حتى بلغوا دمشق ، وأسسوا مدينة القاهرة ، وجعلوها حاضرة ملكهم .

وكان الخلفاء الفاطميون ، وخاصة أولهم المعز لدين الله ، ينافسون بغداد في كل شيء من أسباب العلم والأدب والحضارة ، وكانت مصر في أكثر أيامهم فياضة بالخير ، وقد كثرت في أيامهم الاعياد التي كانت مجالا فسيحا للشعر .

اتصل بهم كثير من الشعراء بين شيعة وسنيين "

ومن أشهر من اتصل بالمعز من الشعراء يأبو الرقمق (مات سنة ٣٩٩هـ)

ومن مجونه :

لو برجلى ما يرأســـــــى لم أبت الا بنجـــــــد
خفة ليست لغـــــــيرى لا أرانى الله فقـــــــدى

وكافيك أن تعلم كثرة الشعراء وجود الفاطميين فى صدر هذا العصـــر ؟ مما ذكره ابن خلكان ،وهو أنه عند وفاة الوزير يعقوب بن كلس زار الشعراء قبره فرثاه مائة شاعر وأجيز كل منهم ،وكان يجيد الشعر فى أخريـــات هذه الدولة الشاعر الصالح طلائع بن رزيك ، الذى كان وزير الدولـــة فى أيام الفائز والعاضد متتبدا بشؤونها ،توفى سنة ٥٥٦هـ.

ولما جلس فى دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

انظر الى ذى الداركـــــــم قد حل ساحتها وزيـــــــر
ولكم تبختر آمنـــــــا وسط الصفوف بها أميـــــــر
ذهبوا فلا والله مـــــــا يبقى الصغير ولا الكبـــــــير
ولمثل ما صاروا اليـــــــه من الفناء غدا نصـــــــير

وكثيرا ما يردد فى شعره مثل هذه المعانى ويجاهر بعلو شأنه ويسخر فى ذم الدنيا ناقما منها فيقول :

وخلائق الدنيا خلائق موصـــى للمنع آونة وللاعطـــــاء
طورا تهادلك السخاء وتـــارة تلقاك تنكرها من البغضـــاء

وتجده أيضا فى اكثر شعره منقبض الصدر مبتئس النفس متضيق بـــه الدنيا فيندب أيامه الماضية ويتململ التحسر أحيانا فيقول :-

وبأكل أيام الشبيب مريـــرة وبأكل أيام الغبـــاب عـذاب
أوجل مالايبلغ العمر بعضـه كأن الذى بعد المشيب غبـاب

أما رثاؤه فمن أفضل الشعر وأجمعه للمعانى الفلسفية
كما قال فى رثاء والدته :

أبكيك لو نفع الغليل بكائى وأقول لو ذهب المقال بدائـــى
وأعوذ بالصبر الجميل تعزيـا لو كان بالصبر الجميل عزائـــى
ماكنت أذخر فى فداك رغيبة لو كان يرجع ميت بفـــــداء
قد كنت آمل أن أكون لك الفدا سما ألم فكنت أنت فدائـــى

وغزله رقيق ليس فيه فحش ولا هجر كقوله :

قال لى صاحبى غداة التقينا ... نتشاكى حر القلوب الظمـــاء
كنت خبرتنى بأنك فى الوجد ... عميدى وأن داءك دائـــى
ماترى النفر والتحمل للبيـن ... فماذا انتظارنا للبكـــاء ؟
لم يقلها حتى انثنيت لما بى ... أتلقى دمعى بغضل ردائـــى

وقال في المدح :

ألبستني نعما رأيت بها الدجـى
صبحا وكنت أرى الصباح بهيمـا
وغدوت يحسدني الصديق وقبلهـا
قد كان يلقاني المدو رحيمـا

ومن غزله الرقيق قوله :ـ

بنفسي من أجود له بنفسـي
ويبخل بالتحيـة والسـلام
وحتفي كامن في مقلتيـه
كمون الموت في حد الحسـام

الشريف الرضي

هو أبو الحسن بن الطاهر أحمد بن ابي الحسين ،وجده الاعلى الحسين بن علي بن أبي طالب ° ولد ببغداد سنة ٣٥٩هـ. وتوفي هناك سنة ٤٠٦ هـ.

وكان الشريف الرضي ،لعلو منزلته وشرف نسبه ،ذا نفس أبية وكانت فيه هيبة وجلالة يرى في نفسه فضلا عظيماً ،وهذا مادفعه الى الميل الى الفخر في شعره ،والتحدث بكرم أخلاقه ،والتغني بعلو نسبه وحسبه ،وحذق اللغة العربية وفروعها ،وقرأ علوم الدين ،وصنف في ذلك كتبا ،كما صنف في الادب والتاريخ . وهو الذي جمع كتاب نهج البلاغة المعروف ،المحتوي على كثير مما نسب الى الامام علي بن أبي طالب من الخطب والرسائل البليغة ،فاق كثيرا من أدباء زمانه وشعرائهم.

ويحسب شعر الشريف الرضي من أمتع الشعر العربي وأجزله وأجمعه للمعاني النفسية والفلسفية ،ونقد الاجتماع وشكوى الزمان ،وأكثر شعره في المدح والفخر والرثاء والشكوى . وكثيرا ماكان يعنى بأحواله الخاصة والميل الى التمدح بصفاته فيقول :ـ

أكر طرفي فلا أرى أحدا ... الا منيظا على مضطغنا
ماضرنا أننا بلا جدة ... والبيت والركن والمقام لنا

الشعر خارج بغداد بعد انقسام الدولة :

كان الانقلاب السياسى وضعف دولة بنى العباس فى القرن الثالث الهجرى ، وانقسام الدولة الى ممالك وامارات ، أن تفرقت جهود العلماء والأدباء التى كانت مدينة بغداد مقراً لها اكثر من قرنين من التاريخ الاسلامى ، فانتقل كثير من الأدباء والشعراء الى خراسان وتركستان حيث أنشأ السامانيون دولتهم ، والى فارس والعراق ، حيث أقام بنو بويه هناك ملكهم ، وذهب جماعة منهم الى أفغانستان والهند مع الدولة الغزنوية ، وبعضهم الى جرجان مع الدولة الزيارية ، وكان ملوك هذه الدول يحاكون بذلك مركز الخلافة فى بغداد أيام عصرها الزاهر فكان الشعر أسبق علوم الأدب انتشاراً ، فكان للشعراء عندهم منزلة رفيعة ، وكثير من هؤلاء الشعراء كان يعيش من شعره ويرتقى الى منصب الوزارة ، فكثر فى شعرهم مدح الملوك والسلاطين والتملق لهم ، وكان من بينهم من عرف الآراء الفلسفية والاجتماعية من الكتب التى ترجمت والمعارف التى نقلت اليهم ، واعتمل الشعر على كثير من هذه المعانى الجديدة ، فكان الشعر يحتوى على بعض الآراء الفلسفية والعلمية ، فضعفت ديباجته لعنايتهم بالمعانى دون الخيال .

ومع ما كان هناك من ذيوع الثقافة الفارسية ، والعناية بأدب الفرس وترجمة كثير من الشعر الفارسى ، والامثال الفارسية الى العربية ، كانت الصبغة العربية غالبة على الأدباء ، وأساليب الشعر العربى مالكة زمام تفكيرهم

فلم يخرج الشعراء عن طريقة الشعر العربى الا فى مزج الحكم والامثال بالشعر وعدم قصر الشعر على الخيال .

وقد ظهرت فى شعر شعراء هذا العصر الأخيلة والأوصاف التى اقتضتها معالم الحضارة ، فامتلأ بأنواع المحسنات اللفظية والمعنوية من أنواع البيان والبديع .

السري الرفاء

السري بن أحمد الكندي المعروف بالرفاء نشأ بالموصل وكان وهو صبي يرفو ويطرز في دكان هناك ويختلط بالشعراء وأهل الأدب ، حتى ولع بالشعر وطالع نظمه ، وجاد شعره وذاع أمره بين الشعراء فقصد سيف الدولة بن حمدان بحلب ومدحه ، وأقام هناك الى أن مات سيف الدولة فانتقل الى بغداد ومدح الوزير المهلبي وغيره من كبار الرجال ، وأصبح من المتكسبين بالشعر في المشرق ، فكان يعيش من مدائحه ، فأيسر بعد أن كان فقيرا معدما ، وكانت وفاته في سنة ٣٦٢هـ على أرجح الأقوال .

وكان السري الرفاء أول أمره يخالط العامة من المتاجر في الأسواق ، ولما صار من الشعراء المجيدين عاشر الخاصة ، فجمع في نفسه الى الفكاهة الحلوة وخفة الروح ، حسن الأدب ورقة التعبير وسعة الخيال ، ولكنه لم يأت في شعره بشيء يدل على قوة التفكير وسعة الاطلاع ، أو الفلسفة كما في شعر الشريف الرضي ، لأنه لم يتلق العلم عن أحد ، ولم يعن بالاطلاع على غير الشعر الذي كان من هواته ، أما أنواع شعره فهي الغزل والهجاء والوصف والمدح والعتابات .

وأما أسلوبه فأسلوب سلس رائق ، لا تكاد تجد به شيئا من التكلف ، على أنه يميل أحيانا الى الصنعة ، ولكنها صنعة خفية تدعو الى الاعجاب .

فمما قاله في المتاب يتهكم :

قد كانت الدنيا عليك فسيحة ... فاليوم أضحت وهي سم خياط
أسخطتني وجناة عيشك حلوة ... فجنيت مر العيش من اسخاطي

وقال يهجو ويتهكم على شاعر قيل انه كان جزارا بالمدينة وسرق من شعره :

أرى الجزار هجني وولى ... فكاشفتي وأسرع في انكشافي
ورقع شعره بعيون شعري ... فشاب الشهد بالسم الزعاف
لقد شقيت بمدحتك الاضاحي ... كما شقيت بغارتك القوافي
توعر نهجا بك وهو سهل ... وكدر وردها بك وهو صافي

وقال في وصف الورد :-

لو رحبت كأس بذي زورة ... لرحبت بالورد اذ زارها
جاء فخلناه خدود أبدت ... مضرجة من خجل نارها

ومن قوله يذكر صناعته :-

وكانت الابرة فيها مضى ... صائنة وجهي وأستارى
فأصبح الرزق بها ضيقا ... كأنه من ثقبها جارى

هـ ـ ووصفه لرجل أحدب بقوله :

قصرت أخادعه وغاض قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما قصرت قفاه مسرة وأحس ثانية لها فتجمعا

و ـ ووصفه للقيان المغنيات العازفات على الأعواد بقوله :

وقيان كأنها أسهمات عاصفات على بنيها حوانى
مطفلات وماحلن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران

٦ ـ المبالغة ومجاوزة الحد فى المدح والهجاء اقتداء بالفرس فى تعظيمهم الأكاسرة ودياناتهم بالحق المقدس للملوك وقد مدح منصور النميرى الرشيد بقصيدة يقول فيها :

خليفة الله ان الجند أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
اذا رفعت امرا فالله رافعه ومن وضعت من الاقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما فليس بالصلوات الخمس ينتفع

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث اليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم : من يحسن مثل قول النميرى : خليفة الله فليدخل والا فلينصرف فقام محمد بن وهب وقال : فينا من يقول مثله وأنشد قصيدة منها :ـ

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو اسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الاشراق طالعة
اذا تقطع عن ادراكها النظر
والبدر يحكيه في الظلماء منبلجا
اذا استنارت ليالیه به الغرر

ومما يتصل بالمبالغة ما أكثروه من الالقاب للتضخيم والتبويل بأقدار الكبار كذى اليمنين أو الرياستين أو الوزارتين أو الكفايتين والالقاب المركبة من اضافة الكلمات الى الدولة أو الدين ، والتى كثرت فى عهد الضعف والانحلال وما أجمل ماقال أبو بكر الخوارزمى فى أحد ذوى الالقاب :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الالقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو كان ألولهم ماكان يرضى به للحسن بوابا

٧ — ومن أشد الآثار ظهورا فى هذا العصر ذلك الأثر الضار باللغة والأدب ، وهو شيوع اللحن مما أدى الى فساد الملكات واضطراب الألسن بزيادة الاختلاط بالاعاجم فى العصر العباسى وكثرة أمهات الأولاد والحواضن والخدم من العجم ، حتى عدا اللحن على ألسنة العلماء ، فقد ذكروا عن أبى عبيدة معمر بن المثنى وهو عمدة الرواة أن لسانه كان لا يستقيم بإعراب بيت من الشعر ينشده ، وأن الفراء كان يلحن ، ولم تعد اللغة العربية أداة للتخاطب ، بل

أصبحت لغة خاصة بالعلم والأدب وأصال الدواوين أما لغة التخاطب فقد صارت هي العامية التي تستمد ألفاظها من الألفاظ العربية الباقية على أصلها ، أو المحرفة أو المصحفة من المولد بالتوسع في النحت والاشتقاق ، ومن الأعجمي الدخيل على غير ما تواضع العلماء على تعريبه ، متحللة من الإعراب متأثرة في طرق الأداء بالأساليب الأعجمية ، حتى استحالت العربية في بعض الجهات الى عجمة شاملة وصفها المتنبي وهو في طريقه الى عضد الدولة البويهي ببلاد فارس إذ يقول :—

مغاني الشعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الفكر واليد واللسان

وظهرت صور وفنون شعرية بالعامية مثل الزجل والموالي ، والقوما ، والكان كان ولما كانت اللغات القويمة للأعاجم في هذا العصر مختلفة باختلاف الأقطار كان أكثر الغريب في عامية العراق ، فارسيا ، وفي عامية الشام رومية ، وفي عامية مصر قبطيا ، وأما في عامية البادية الحجازية فكان من كل هذا وغيره ، وكان قليل المقدار بالقياس الى ما كان منها في العاميات الأخرى .

الشـــــعـــــر

كانت بغداد فى العصر العباسى الاوّل مركز الثقافة فى الدولة ومنبت العلم والادب ،وكان العلماء والادباء والشعراء فى اطراف الدولة يرحلون اليها ليعرضوا مواهبهم ،وينشروا علومهم وفنونهم، وكانوا يجدون هناك آذانا تستمع لهم ،وعقولا تقدر فضلهم وتعرف منزلتهم ،فيصلون الى الشهرة من أقرب طريق ،ويحير ذكرهم فى الآفاق وتشد اليهم الرحال ،وتدر عليهم أخلاف الرزق.

وكان الخلفاء والوزراء ومن اليهم يتنافسون فى العطايا والصلات والاغداق على المجيدين .

فلما انقسمت الدولة أوطانا واستقلت أطرافها ،وجد الشعر له أوطانا عدة ،وتعددت طرق الشهرة أمام الادباء والشعراء ،واتسع حولهم مجال الاختيار ،وبعد أن كان الشاعر لا يجد أمامه غير بغداد أصبح الان يستطيع أن يختار الامير الذى يزوره ،والبلد الذى ينزل به ومن العجيب أن انقسام الدولة وضعفها هنا كان سببا فى قـــوة الادب ونشاطه ، وذلك لان ضعف الدولة هنا سبب انقسامهـــا أوطانا وذلك اقتضى أن يكون لكل وطن ملك أو أمير ملاء النـزهـــة وأراد أن يجمع لديه أسباب الملك والعظمة ،وأن يعيد الى العلـــم والادب أيامهما ،وأن ينافس الامراء حوله ،وأن يجعـــــــل امارته مباءة الادبـــــــاء والعلمـــــــاء

وقد عرف أن الشعر خير أسباب الاذاعة ،وأعظم وسائل الشهرة فأغرى الشعراء بزيارته والاقامة فى كنفه ،وغمرهم بصلاته فارتفع شأن الشعر وجود الشعراء فيه ،وسبب آخر دعا الى رقى الشعر،وذلك أن الفرس الذى نبت ونما فى العصر العباسى الاوّل آتى أكله فى هذا العصر ،وأن جميع الوسائل التى بذلت فى إنبهاض العلوم والفنون أيام العباسيين الاوّلى ظهرت آثارها ،وأن احياء العلوم والاقبال على ترجمة آثار الاوّلين من فرس ورومان ويونان فى عهود المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم ظهر فى الغابة العربية فى العصر الثانى ،فتجلت آثار هذه الثقافة القديمة فى أشعارهم ،وتلون الشعر بلون جديد يدل على عراقة فى المدنية ،وتمكن فى أسباب الحضارة ،ولم يعد يظهر فيه آثار البداوة الا بقدر المحافظة على جمال الاسلوب وروعة البيان .

فأنت ترى فى هذا العصر شعرا فلسفيا ،وترى فيه شعرا صوفيا ، كما فى شعر المتنبى والمعرى وابن الفارض ،وكاد المنطق يقضى فيه على روعة الخيال ،وأدخلوا اصطلاحات العلوم العقلية والرياضية فى عباراتهم وتشبيهاتهم ،ومن أشهر شعراء الفلسفة : ابن سينا والرازى وابن التلميذ الطبيب ،ومن أشهر شعراء التصوف الحلاج والشبلى والقشيرى . وكثر فى هذا العصر الشعر التهكمى والهزلى ،كما فى شعر ابن حجاج وابن سكرة وأبى الرقعمق وضريع الدلاء واستجد أكثر فى هذا العصر

التراسل بالشعر فحل الشعر محل الكتابة وكثرت قصائد التهاني بالاعياد والمواسم ،التي تعددت أيامها في العهد الفاطمي كما شاع وصف الوقائع الحربية لكثرة الحروب بين المسلمين وغيرهم من الروم والصليبيين. وقال الشعراء وأفاضوا في التهنئات بالفتوح والحض على الجهاد . ويمتاز الشعر الشامي — ولاسيما في طليعة هذا العصر — بقوة الاسلوب وبلاغته وكثرة المعاني ودقتها ،واتساع مدى الخيال وذلك لقرب الشام من بلاد العرب مهد العربية ،ومن العراق منشأ الحضارة الاسلامية وقد كثر في الشام أول هذا العصر الشعراء الوصافون الذين لا يشق لهم غبار،وهم معظم من اتصلوا بسيف الدولة كالسري الرفاء وكشاجم وغيرهم وقد بلغ الشعر منتهى رقيه في صدر هذا العصر،ثم أخذ في التدلي شيئا فشيئا ،وكأنه أراد أن يستعيض عن فخامة الاسلوب ودقة المعاني بالرقة والانسجام ،فنجح أكثر النجاح حتى وصل الى غاية الرقة بظهور بهاء الدين زهير وأمثاله في الدولة المصرية أيام الصلاحيين ،وبهذه الميزة وحدها فاق الشعر الشامي وظهر عليه — وظهرت العناية بأنواع البديع في هذا العصر وتعمدها الشعراء تعمدا لتحلية أشعارهم وتزيينها وقد كانت بداية الاهتمام بالبديع في العصر الاول ،فكان مسلم بن الوليد يجمل شعره بالبديع أحيانا ،ولكنه لم يفرق ولم يتجاوز الحد ،ثم تلاه أبو تمام فأولع وملك عليه الجناس نفسه ،وكاد يفسد عليه شعره ، لولا ذوق أصيل يحول بينه وبين التدهور

وكان البحترى يقصد الى البديع أحيانا ،ولكن ديباجته البديعة كانت تأبى أن يؤخذ عليها شيء من تكلف الصناعة ،ثم جاء ابن المعتز وألف فى البديع ،وأغرم به بعض الاغرام ،ورقى به شعره ،ولكن دقة صناعته ،وحسن تشبيهاته ،حالت دون أن يهون شعره ،ودون أن يحقطه عبث الصناعة اللفظية .

واذا رجعنا الى هذا العصر رأينا للبديع فيه سوقا رائجة ،وحظا موفورا فأكثر الشعراء منه وتعمدوه ،كقول الوأواء الدمشقى :ـ

يطوف براح ريحها ومذاقهـا نسيم الصبا والعيش فى زمن الصبـا

وقول ابى الفتح البستى :

اذا تحدثت فى قوم لتؤنسهم بما تحدث من ماض ومـن آت

فلا تعد لحديث ان طبعهم مؤكل بمعاداة المعـادات؟؟؟

ولا يكاد أديب عباسى لم يشارك فى ضرب المثل وازجاء للحكمة ، ومن أشهرهم : بشار وصالح بن عبد القدوس ، وأبو العتاهية والمتنبى ، والمعرى يقول بشار :

اذا بلغ الرأى المشورة فاستمن برأى نصيح أو نصيحة حازم

ويقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى جهله كذى الضنى عاد الى نكسه
وان من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول المتنبى :—

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الغلام ويهرم
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

ويقول المعرى :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلابى بناء
تناءب عمرو إذ تناءب خالد بعدوى ، فما أعدتنى الثؤباء
وزهدنى فى الخلق معرفتى بهم وعلمى بأن العالمين هباء

وجمع أبو العتاهية في أرجوزته حكمه وسماها " ذات الأمثال نحو أربعة آلاف مثل : ومنها :-

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
القنوع يكفيك جاور القنوعا من اتقى الله ربحا وغنى
كل ما يؤذي وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم

٤ - الاكثار من الاستدلال بالحجج العقلية نتيجة لدراسة الفلسفة والمنطق ولذلك كثر في أدبهم حسن التعليل والمذهب الكلامي والتذييل المشتمل على التشبيه الضمني ومن أمثلة ذلك :

أ - استدلال أبي تمام العقلي على جواز مدحه للغير بتشبيهه بمن هم دونه فقد روى أن أبا تمام مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته التي مطلعها :

ما في وقوفك ساعة من باس نقضي حقوق الأربع الأدراس

فقام له الفيلسوف الكندي :

الأمير فوق من وصفت فأجاب أبو تمام على البديهة قائلا
لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ب ـ استدلال ابن الرومى على أن تطويل المدح دليل على بخل الممدوح وذلك اذ يقول :ـ

واذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فقد أطال أول هجائه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

جـ ـ تعليل ابن الرومى بكاء الطفل عند ولادته بأنه بسبب ما سوف يلقى فى الحياة من ضروب المتاعب ،وذلك اذ يقول :

لما توذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه فيها وانها لأوسع مما كان فيه وأرغد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد

د ـ استجهان ما تواضع الناس على استحسانه من تشبيه المحبوبة بالدليل المقلى ،وذلك اذ يقول عبد الرحمن بن المنجم :ـ

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولى بالنكر
وسفهت قولى وقالت متى سمجت حتى صرت كالبدر؟
البدر لا يرنو بعين كما أرنو ولا يسمع عن ثغر
ولا يميط المرط عن ناهد ولا يشد العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتى فلا زال أسيرا فى يدى هجرى

• — براعة التصوير والاقتنان فيه لما اطلعوا عليه من الآداب الاخرى بالترجمة ، ولما بلغوه وعاشوا فيه من الحضارة والترف ومن أمثلة ذلك :

أ — وصف ابن المعتز — وهو الخليفة ابن الخليفة — للهلال ، اذ يقول :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ب — ووصفه للأقحوان ، وهو زهر أصفر في وسط خمل أسود ، اذ يقول

كأن أذريونه والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب فيه بقايا غالية (١)

جـ — ووصف ابن الرومي لصانع الرقاق اذ يقول :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

د — ووصفه لقالي الزلابية اذ يقول :

رأيته سحرا يقلي زلابيه في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته القالي حين بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجينا من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب

(١) الغالية : المسك ، ولونه أسود .

وزير لايمل من الرقاعـــــه يولى ثم يعزل بعد ساعـــة
ويدنى ممن تعجل منه مـــال ويبعد من توسل بالشفاعـــة

على أن بعض ذوى الفضل والدين استهجنوا تلك الأحوال فزهدوا فى الأعمال وفى الحياة تاركين العاجلة للآجلة وقد كتب الرشيد الى سفيان الثورى يلوح له بعمله فرد عليه بما أشجاه وأرادوه على تولى قضاء الكوفة فهرب من وجه الطلب وظل مختفيا حتى مات بمكة سنة ١٦١ هـ . وبعث المعتضد بألف دينار الى ابراهيم بن اسحاق الحربى فزدها وقد عاش أكثر عمره على كسرة يابسة وملح

وأما من لم تتصل أسبابه من العلماء والأدباء بأهل الغنى والثراء — فقد عاشوا مع سواد الشعب يعانون قسوة الحياة وذل البؤس حتى يتعجل بعضهم الموت لشدة الجوع بالانتحار وقد استغاث الشاعر ابو العتاهية من أهل بغداد اذ يقول :

من مبلغ عنى الامام نصائحا متواليه ؟
أنى أرى الأسعار أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر وأيحه تمر وغاديه

وأين التماسي والأرامل في البيوت الخالية
من البطون الجائعات وللجسوم العارية ؟

وقد قام الشعب في بعض الأحيان بثورات كما حدث حين ثار عامة بغداد بابن سمدان وزير عضد الدولة البويهي وشغبوا عليه .

لقد أحيا ظهور الموالي في هذا العصر الشعور القومي لديهم فبدت البغضاء للعرب من أقوالهم وأعلنوا مآثر العجم ومجدهم وسجلوا ذلك في شعرهم من أمثال بشار والخريمي ومهيار وابن الرومي لهم من الشعراء والعلماء من دافع عن العرب وانتصر لهم كالجاحظ وابن قتيبة وانغماس الأدباء في الترف والمجون مكن لهم من تصوير تلك الحضارة المشرقة ووصف مظاهرها ومباذلها وتحسين الخلاعة والمجون — كما في شعر بشار وواليه بن الحباب ومسلم بن الوليد وأبي نواس . وفي مقابل هذه الحركة المادية الساعدة قامت حركة الزهاد فنفروا من الدنيا ورغبوا في الآخرة كما في شعر أبي العتاهية وجاءت المقامات لتحكي قصص الكادحين الذين يحتالون على العيش بالمكر والخداع وفي مقابل فساد الحكم وقف من ينادي بالاصلاح كابن المقفع ومن يندد بالحكم كأبي العلاء .

دلائل تأثر الأدب بالحياة السياسية والحياة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني :

تأثر الأدب شعرا ونثرا بالحياتين السياسية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني ، ومن دلائل ذلك :-

١ - الاكثار من الألفاظ الأجنبية : فقد دخل في اللغة العربية كثير من الألفاظ الأجنبية لما أطلعهم عليه الحضارة من المسميات الجديدة ووقفتهم عليه الترجمة من المصطلحات العلمية ، ولئن كانت اللغة العربية منذ جاهليتها قد استعارت بعض الألفاظ الاعجمية وقد ورد منها في القرآن الكريم كلمات معربة .. الا أن العصر العباسي استكثر من ذلك فأخذ الكثير من الألفاظ من الفارسية واليونانية والهندية والتركية كالبهرج (الباطل) والشاهين (الصقر) والجوسق (القصر)(١) .

٢ - الامتلاء من المعاني الدقيقة : فقد كان الاطلاع على الآداب الأجنبية سببا في امتلاء الأدب العباسي بالمعاني الدقيقة التي قد تصعب على الفهم وتكد الذهن ومن ذلك قول المتنبي في ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رسطا ليس والاسكندرا
وشهدت بطليموس راوي كتبه ... متملكا متبديا متحضرا

(١) ينظر " العرب فيما تكلمت به العرب من الكلام الاعجمي ".

وقول اسحاق بن ابراهيم الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها
فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر
وماكان هجراني لها عن ملالة
ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأي عقوبة
أعاقبه فيها لترضى فما أدري
سوى هجرها والهجر فيه دماره
فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله
فعاذ من المهراب والقطر بالبحر

وكقول الخوارزمي :

قد عصاني دمعي وخلى فخلت
الخلى دمعا ،وخلت دمعي خلا

٣ــ الاكثار من الحكم والامثال : فقد نقلوا من ذلك الكثير عن الهندية واليونانية والفارسية ،وأكثر ما نقلوه من ذلك كان نثرا ،وان كان بعضه قد جاء شعرا ومنه قول الابيوردي في قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس
صباحي اذا أفطرت بالسحت مثله ومسي اذا لم يجد ضرب من الجهل
وتزكيني مما اجتمعت من الرياء وبعض الجود أخزى من البخل

أن التزاوج من الغرباء يحسن النسل ، لأنه يجمع مزايا الامتين
فى الاكثر : اغتربوا لا تضووا ، ويقول الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى ، وقد يضوى رديد القرائب

ويقول الراجز :

أنذر من كان بعيد لهم تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

لقد قست الدولة العباسية أخلاطا شتى من أصول العالم الثلاثة : السامية والارية والحامية ، وتلاقحت هذه العقول والعقائد والثقافات ونشأ جيل منها جديد ، وارثا عنها مزاياها ، مكتسبا منها عاداتها وقلد العرب الاعاجم فى ملابسهم وكانت خاصة الخليفة يلبسون . . القلانس الطوال ، ويرتدون دراعات مكتوبا عليها من الخلف بين الكتفين : " فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم " فقال فى ذلك أبو دلامة على سبيل الاضحاك ، وكان مقربا من المنصور :

وكنا نرجى من امام زيادة فجاد يطول زاده فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

واحتفلوا باعيادهم احتفالهم بالاعياد الاسلامية . ونقلوا ماشاع فى حضاراتهم من ترف ، فأسرفوا فى الانفاق اسرافا لم يعهد من قبل وعاونهم على ذلك كثرة موارد الدولة ، حتى نرى الرشيد حين يتزوج زبيدة يولم للناس وليمة يهب فيها اوانى الذهب .

مملوءة فضة ،وأوانى الفضة مملوءة ذهبا . والمأمون يعطى بوران ، بنت الحسن بن سهل ليلة اعراسه بها ألف خصاة من الياقوت ، ويبسط لها فرشا كان الحصير فيها منسوجاً بالذهب ،مكللا بالدر والياقوت ،أما خمارويه بن أحمد بن طولون فانه حينما خطب المعتضد بالله الخليفة العباسى ابنته قطر الندى — جعل فى جهازها مائة هاون من الذهب ،وأعد لها دكة من أربح قطع من الذهب ، وعليها قبه من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لايعرف له قيمة ،وسنى على رأس كل مرحلة من مصر الى بغداد منزلا تنزل فيه فتجد به من الفرش والمعدات ماتشعر به أنها فى قصر أبيها . وأنشأوا المصانع الضخمة ،والقصور الفخمة .

ويكثر المتوكل من بناء القصور بسر من رأى ،ويكون منها : التاج والثريا والجعفرى ، والشيدان ،والغريب ،والصبيح ،والمليح ، والبرج وغيرها ،وفى وصف الجعفرى يقول بن الجهم :

ومازلت أعلم أن الملـــوك تبنى على قدر أقدارهـــا
وأعلم أن عقول الرجال يقضى عليها بآثارهـــــا
فلما رأينا بناء الامام رأينـا الخلافـــة فى دارهـا
بدائع لم ترها فارســـس ولا الروم فى طول أعمارها

صحون تسافر فيها العيـــون اذا ماتجلت لابصارهـــا
وقبة ملك كأن النجـــوم تفضى اليهـــا بأسرارهـــا
نظمن الفسافس نظم الحلـى لعون النساء وأبكارهـــا

فقد كان هذا الترف أشد الدواعى لارتكاب الموبقات والاغـــراق فى الملذات حتى التمسوا الشهوات لدى الغلمان فضلا عن النساء وانتقل الترف والاسراف فى الملذات من الخاصة الى العامـــة وانجر له حتى القضاة والرهبان وانتشر المتجرون باللذات فـــى الامصار واستشرى الفساد بالقول فى شعر الشعراء وبالعمل فى فعل الفساق والشطار الذين بلغت جرأتهم أن كانوا يتخطفون النســاء والغلمان من الطرق وقد حاول المهتدى بالله وكان زاهدا — أن يحمل الناس على السلوك القديم فأمر بالمعروف ونهى عن المنكـــر ولكن الناس استثقلوا واستطالوا خلافته وما زالوا به حتى قتلـــوه قبل أن يكمل عاما فى الخلافة وقد دفعت هذه الحياة الناس الـــى الطمع والجشع فتمتـــد الى الرشوة أيدى العمال قبل أيدى الوزراء وكانوا يقامرون للكسب ولو كان القمار على الكتب بل أن الخاقانى وزير المقتدر قد ولى على الكوفة فى يوم واحد تسعة عشر واليا أخذ مـــن كل منهم رشوة وفيه يقول أحد الشعراء :

وأتوا من الشعر والعلم بكل عجيب غريب .

ولئن لم يكن هذا العصر عصر الأدب - فقد كان بغير شك - هو عصر العلم والتأليف الذهبي ، فقد ارتقت في هذا العصر العلوم التي نشأت فيه ، وتكاملت علوم السلف بالرواية ، وأتت ترجمة العلوم الدخيلة أكلها وقد أعان على هذه النهضة العلمية الجديدة كثرة المكتبات في هذا العصر وإباحتها للمطلعين ومن أمثلتها : مكتبة العزيز الفاطمي بالقاهرة ومكتبة الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة ، وكانت تسمى دار الحكمة ودار العلم ، ومكتبة سيف الدولة الحمداني بحلب ، ومكتبة ابن العميد وزير البويهيين بالري في جنوبي فارس ، وكان يقوم على تدبيرها ابن مسكوية صاحب كتاب تجارب الأمم ، ومكتبة سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن بويه ببغداد ، ومكتبة نوح بن منصور السامانى ببخارى .

وكما كان الحال في عهد البويهيين من اضمحلال الأدب ، وركود ريحه وظهور النهضة العلمية - كان الحال في عهد السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين ، وفي عهد الأيوبيين الذين خلفوا الفاطميين ، وظهرت الموسوعات في هذا العهد والكتب الجامعة التي تحوي الكثير من المعارف والحقائق العلمية وكذلك كثرت المدارس وانتشرت في حواضر البلاد ، فاستقلت عن المساجد بأبنية خاصة

تتصل بالمساجد أوتنفصل عنها، ويرتب لها المدرسون ، وتجرى عليهم وعلى تلاميذهم الارزاق . ومن لهم فضل فى انشاء المدارس فى هذا العهد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى فهو الذى أنشأ المدرسة النظامية فى بغداد وكان من أساتذتها حجة الاسلام الامام الغزالى ، وأبو اسحق الشيرازى ، وأبو زكريا التبريزى والسهروردى الشاعر، وقد بنى نور الدين زنكى مدارس فى دمشق وحلب وحماة وحلب ، وأنشأ صلاح الايوبى مدارس فى مصر والاسكندرية .

الحياة الاجتماعية وأثرها فى العلم والادب فى هذا العصر:

قرر الاسلام المساواة بين الناس فقال تعالى : " يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم" و قرر أن المؤمنين اخوة ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وأسلم الاعاجم على هذا المبدأ وصادفوا حرصا من النبى وأصحابه على تطبيقه كما ورد فى أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وعن عمر : "لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته" وعن على أنه كان لا يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمى ، وذهب اليه بعض أصحابه وطلبوا منه أن يفضل الاشراف من العرب وقريش فى العطاء على الموالى والعجم ،

فقال لهم أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟

ولكن الأمويين خالفوا هذه القاعدة ،وتعصبوا للجنس العربي فجاروا على الأعاجم ،ولم يولوا أعمالهم لغير العرب حتى القضاء بين الناس والامامة في الصلاة ،بل حرموا على الاعجمي أن يتزوج من عربية ،واحتقرطامة العرب الأعاجم ،حتى كان العربي اذا أقبل من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه اليه ليحمله عنه فلم يتيسر للاجانب سبل الاندماج في الجماعة والتأثير فيها وجاء العصر العباسي فتغير الحال وانتقل التعصب للعرب الى التعصب للاعاجم بل أهمل العرب ،وأقصوا عن رفيع المناصب ،وأصبح العنصر الأجنبي ليس مشاركا في السلطة والنفوذ فحسب ،بل متسيطرا ومهيمنا ،وقد ساعد على شيوع العناصر الأجنبية والتحري بالعصبية أسباب منها : أن تلك الاماء كان يعد المعاينة بخلاف الزواج الذي كان يتم بواسطة الخاطبة ،ولما تعرف المرأة من المرأة - كما يقول الجاحظ ظاهر الصفة ،وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فانها لاتعرف ذلك ،ومنها ماظهر من نجابة أولاد الاماء ،ولهذا بلغ عدد جواري الرشيد ألفين ،والمتوكل أربعة آلاف ،وكاد خلفاء بني العباس يكونون جميعا من امهات الأولاد ،ونشأ جيل من المولدين تتربى في حجور هؤلاء السراري والحواضن فتأثر بهن في خصائصه الجسمية والعقلية والنعكس ذلك على أدبه ،والعرب من قديم تعرف

واستمر الشعر قويا بالشام بعد زوال الدولة الحمدانية وما وليها من دويلات ، حتى جاء حكم نور الدين محمود بن زنكى ، فرأى الشعر الشامى فى الحروب الصليبية مجالا فسيحا فصال وجال .

والحق أن الشعر فى الشام كان كثيرا جدا فى هذه الفترة ، وكان معظمه جيدا . وقد التف الشعراء - وهم كثيرو العدد - حول الغزاة فى الحروب الصليبية يسجلون بطولتهم ، ويغنون فتوحاتهم ، فلم يتركوا موقعة الا دونوا حوادثها ، ولا انتصارا إلا أشادوا به .

وكانت وفاة نور الدين سنة ٦٩ هـ . وعلى الرغم من كثرة الشعراء فى أيامه والتفافهم حوله ، ذكروا فى ترجمته أنه كان قليل الابتهاج بالشعر متهما بالبخل .

وقال فيه اسامة بن منقذ :

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة .. من المعاصى وفيها الجوع والعطش

نماذج من الشعر فى الأغراض المختلفة

الحماسة — قال بشار بن برد :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... والشوك والخطى حمر شمائله (١)
صعدونا له والشمس فى خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذا تبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى الفرار مثالبه (٢)
كأن مثار النقع فوق رؤسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة اننا ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه (٣)
فراحوا فريق فى الاسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

وقال أبو الطيب المتنبى :

وانى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرت بى ساعة لاتعزنى ... ولاصحبتنى مهجة تقبل الظلما

المدح — وقال مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى :—

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى غيل خفان (٤) أشبل (٥)

(١) الشمائل جمع شمأل وهو هنا طرف الريح الداخل فى جبة السنان : أى والرياح حمر أطراف من دماء الاعداء . (٢) اى مثالب الفرار من الخزى والعار . (٣) جمع سبيبة وهى الشقة من الثياب .
(٤) بطن من شيبان منها معن . (٥) مأسدة قرب الكوفة .

هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل
بهاليل (١) في الاسلام سادوا وليهكن ... كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا ... أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وان أحسنوا في الناثيات وأجملوا

الرثاء: قال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة:

ألما على معن فقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا (٢)
فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الارض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جودة ... وقد كان منه البر والبحر مترعا (٣)
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضاقت حتى تصدعا (٤)
فتى عيش في معروفة بعد موته ... كما كان يعد السهل مجراه مرتعى (٥)
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا (٦)

وقال أشجع السلمي:

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ... ولا مغرب الا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفه ... على الناس حتى غيبته الصفائح

---

(١) الشمائل جمع شملب وهو طرف الريح في جبة السنان أي والرياح حمر أطراف من دماء الاعداء. (٢) الغادية: السحابة تنشأ غدوة.
(٣) المترع الملآن. (٤) تصدع: تتصدع أي تتشقق. (٥) ويروى: ترعى فيه الابل. (٦) العرنين: الانف أو أوله مما يلي الحاجبين وهو موضع الشم.

فأصبح في لحد من الأرض ميتا ... وكانت به حيا تضيق الصحاصح (١)
وما أنا من رزء وان جل جازع ... ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حي سواك ولم يقم ... على أحد الا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها ... لقد حسنت من قبل فيك المدائح

الهجاء — وقال حماد عجرد :

حريث أبو الصلت ذو خبرة ... بما يصلح المعدة الفاسدة
تخوف تخمة أضيافه ... فعودهم أكلة واحدة

وقال خلف الأحمر :

لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطاء قليل الصواب
ألج الحاجا من الحنفساء ... وأزهى اذا ماشى من غراب

وقال أبو علي البصير :

لعمر أبيك ما نسب الدنايا ... الى كرم في الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعي الهشيم (٢)

(١) الصحاصح : جمع صحصح وهو ما استوى من الأرض .
(٢) صوح : يبس . والهشيم : الجاف من النبات .

وقال المتنبي :

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك مخازيا ... من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر

وقال الابيوردي :

وقصائد مثل الرياض أضمتها ... في باخل ضاعت به الاحساب
فاذا تناشدها الرواة وأبصروا ... الممدوح قالوا : ساحر كذاب

الاعتذار — وقال علي بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك الا حرية ... تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جل ذنب ولم اعتمد ... لانت أجل وأعلى يدا
ألم ترعبدا عدا طوره ... ومولى عفا ورشيدا هدى
وعمد أمر تلافيته ... فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلني أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى

وقال ابراهيم بن المهدي في أبيات يعتذر بها للمأمون :

الله يعلم ما أقول فانها ... جهد الالية من مقر خاضع
ما ان عصيتك والغواة تمدني ... أسبابها الا بنية طائع

وقال أيضا :

ذنبي اليك عظـــــيم وأنت أعظم منـــــــــه
فخذ بحقك أولا فأصفح بفضلك عنـــــــــه
ان لم أكن في فعالـــــي من الكرام فكنـــــــــه

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من قـــادر لاسيما عن غير ذي ناصـــــر
ان كان لي ذنب (ولاذنب لي) فما له غيرك من غافـــــــر
أعوذ بالود الذي بيننـــــا ان يفسد الأول بالآخـــــر

الوصف: وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عـــن الليل :

ماترى نعمة السمـــاء على الار ض وشكر الرياض للأمطار ؟
قد تولت زهر النجوم وقد بشـــــر بالصبح طائر الاسحـــار
وغناء الطيور كل صبـــــاح وانفتاق الأنجار بالأنـــوار
وكأن السحاب يجلو عروســـا وكأنا من قطره في نثـــــار

وقال ابن طباطبا يصف الليل والنجوم :

رب ليل صحبته كاسف البـا ل كئيبا حليف هم شتيـــت
مؤنسا ريعه بطول أنيـــن وهولي موحش بطول السكوت

تحت سقف من الزمرد قد رصع حسنه بالدر والياقـــــوت

وقال أبو بكر الصنوبري يصف ديكا :

منفرد الليل ما يألوك تغريدا ... مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهورا
لما تطرب هز العطف من طـــرب ... وبد للصوت لما مده الجيدا
كأنه مطرقا مرخى ذوائبـــــه ... تضاحك البيض من أطرافه السودا
حالى العقلد لو قيست قلائـــده ... بالورد قصرعنه الورد تقييدا

الاجتماع والسياسة :

وقال يزيد المهلبي من قصيدة يرثي بها المتوكل ويبكي بها بنـــي العباس في نبذهم العرب واستغنائهم بمماليك الترك :

لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهـــم ... ضمتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكـــم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والانساب تجمعهم ... والمجد والدين والارحام والبلد
اذا قريش اراد واشد ملكهـــم ... بغير قحطان لم يبرح به أود (١)

(١) عـــــج .

الحكمة والمثل : قال صالح بن عبد القدوس:

وإن من ادبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مونقا ناضرا ... بعد الذى أبصرت من يبسه
والشيخ لايترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى جهله ... كذى الضنى عاد الى نكسه

وقال بشار بن برد :

اذا كنت فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه ؟

وقال أبو الطيب المتنبى :-

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
لايخدعنك من عدو دمعه ... وأرحم شبابك من عدو ترحم
لايسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعله لايظلم

ومن البلية عذل من لا يرعوي
عن غيه وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما يسالك نفعه
ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

.....

تراجم لبعض مشاهير العصر من الشعراء

ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبدالله ابن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله أبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات.

ولد سنة ٢٤٨ هجرية في بيتا الخلافة وتربى تربية الملوك وأخذ عن المبرد(١) وثعلب(٢) وسهر في العربية والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتابها ووصلوا على أن لا يقلدوه الخلافة خشية أن يكف أيديهم عن الاستبداد بالملك وولوا المقتدر صبيا ثم حدثت فتن عظيمة فتسرع محمد بن داود بن الجراح(٣) (وكان من أفاضل الكتاب والأدباء) وجمع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر وبايعوا ابن

---

(١) هو النحوي البصري العظيم والأديب الكبير أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الأزدي المتوفى سنة ٢٨٥هـ صاحب الكامل والروضة والمقتضب.

(٢) هو النحوي العظيم الكوفي أبو العباس أحمد بن يحيى الشهير بثعلب توفي سنة ٢٩١هـ.

(٣) كان كاتبا عارفا بأخبار الناس ودول الملوك له جملة مصنفات قتل في فتنة ابن المعتز سنة ٢٩٦هـ.

ابن المعتز بالخلافة فبر طلب منه ، فلما رأى غلمان المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم حملوا على أتباع ابن المعتز فاختفى في دار ، بعض التجار[1] فقبض عليه وخنق من ليلته ، ودفن بخربة بجوار داره سنه ٢٩٦ هجرية .

وكان ابن المعتز سهل العبارة ، كثير مراعاة البديع في قوله مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع . ولما كان مقامه يجل عن الاكتساب بالشعر قل المدح في كلامه ، الا في أهل بيته من الخلفاء وبعض وزراء الدولة ، وزاد في التشبيهات البديعية ، وأوصاف محاسن الطبيعة ، ومجالس الانس ، ومراسلة الاخوان في الدعوة اليها ، ووصف الصيد وكلابه ومواشقه وفهوده ، والقلم والقرطاس ، ونحوه ذلك .

والمتأمل في شعره يعرف فيه نضرة النعيم ، وترف الملك ورقة الخيال ، ولطف الوجدان .

ومن ابتدائه الجميلة قوله :

---

(١) هو أبو عبدالله الحسين المعروف بابن الحصاص التاجر الجوهري أخذ منه المقتدر في حادثة ابن المعتز الفي ألف دينار وسلم له بعد ذلك جميعها ألف دينار ، وكان فيه غفلة وله على غفلته سفرط ، توفي سنة ٣٢٥هـ .

أخذت من شبابي الأيـــام ∴ وتولى الصبا عليه السـلام
وارعوى باطلي فبان حديث ∴ النفس مني وغث الأحـلام

ومن شعره قوله يصف فصل الربيع:

حبذا أذار شهـرا ∴ فيه للنور انتشـار
ينقص الليل اذا حـل ∴ ويمتد النهـار
وعلى الأرض اصفـرار ∴ واخضرار واحمـرار
فكأن الروض وشـى ∴ بالغت فيه التجـار
نقشه آس ونسريـن وورد ونهـار

ومن تشبيهاته قوله في الهلال:

وانظر اليه كزورق من فضـة ∴ قد اثقلته حمولة من عنبر

وقوله:

انظر الى حسن هلال بـدا ∴ يهتك من أنواره الحندسا (١)
كمنجل قد صيغ من فضـة ∴ يحصد من زهر الدجى نرجسا

أبو الطيب المتنبي

هو أبو الطيب احمد بن الحسين الجعفي الكندي الكوفي المتنبي، الشاعر الحكيم صاحب الامثال السائرة، والمعاني النادرة،

(١) الظلام.

ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ واولع بتعلم العربية من صباه . وكان فـادرة في الحفظ لايسأل عن شيء الا استشهد فيه بكلام العرب مـن النظم والنثر : وكان أبوه فيما يقال سقاء فخرج به الى الشـام، ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لايكون الا بالمعيشـة بالبادية ،فخرج الى بادية بنى كلب ،وهو يعـد فتى لايزيد عمـره على عشرين سنة ،فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخـذ عنهم اللغة ،اذ كانت لاتزال صحيحة بالبادية ،حتى أحاط بغريبها وحوشيها ،فمعظم شأنه بينهم . وكانت الاعراب الضاربون بمشـارف الشام شديدى الشغب على ولاتها فوشى بعضهم الى لؤلؤ أمـير حمص من قبل الاخشيدية (١) بأن أبا الطيب ادعى النبوة فى بنى كلـب

(١) الدولة الاخشيدية هى دولة استقلت بمصر والشام والحجاز استقلالا داخليا سنة (٣٢٣ـ ٣٥٨هـ) وأسسها (محمد بن طغج الاخشيد مات سنة ٣٤٤ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكـان صغيرا فجعل الاستاذ ابو المسك كافور الخصى الاسود قيما عليـه فمات أنوجور سنة ٣٤٩ وخلفه اخوه على ولم يكن له مع كافور من الأمر شيء ومات سنة ٣٥٥هـ فتولى كافور ملك مصر وجاءه تقليد الخليفـة ومات سنة ٣٥٧هـ فتولى احمد بن على بن الاخشيد فأقام شهورا حتى جاءت الدولة الفاطمية وفتحت مصر.

وتبعه منهم خلق كثير ،ويخشى على ملك الشام منه ،فخرج لؤلؤ الى بنى كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلا ثم أطلقه .

وخرج من السجن وقد لصق به اسم المتنبى مع كراهته له . ثم تكسب بالشعر مدة انتهت بلحاقه بسيف الدولة بن حمدان(١) فمدحه بما خلد اسمه أبد الدهر ،وتعلم منه الفروسية ،وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم ،حتى عد من أبطال القتال طمعا منه أن يكون صاحب دولة . وبقى أثيرا عنده مقدما على جميع حاشيته وبطانته مع صلف وتيه . فوشوا به الى سيف الدولة . وكان أشدهم حسدا له ابن خالويه(٢) النحوى مؤدب سيف الدولة فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة ،فضربه ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهه فشجه ولم ينصفه سيف الدولة منه ،فقصد أبو الطيب كافورا الاخشيدى أمير مصر ،رجاء أن

(١) هو أبو الحسن على أشهر امراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب وكان سيف الدولة يملك حلب والعواصم ،ثم أخذ دمشق من الاخشيدية ومات سنة ٣٥٦هـ وكان أخوه الحسن ناصر الدولة يملك الموصل والجزيرة ،وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة وخلف ناصر الدولة ابنه أبو تغلب ثم أخوه الغضنفر.

(٢) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه كان اماما فى اللغة والنحو توفى سنة ٣٧٠هـ.

ينال عنده مالم ينل عند سيف الدولة ومدحه بقصائد سنية ، ووعده كافور أن يقلده امارة أو ولاية ، ولكنه لما رأى تعاليه في شعره وفخره بنفسه عدل أن يوليه ، وعاتبه بعضهم في ذلك فقال : ياقوم : من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أنا يدعى المملكة بعد كافور ، فحسبكم ، فعاتبه أبو الطيب عتابا أمضه وآلمه ، واستأذن في الخروج من مصر فأبى ، فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ وخرج منها يريد الكوفة ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس مارا ببغداد فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فاجزل صلته وعاد الى بغداد ، وخرج الى الكوفة فخرج عليه اعراب بنى ضبة وفيهم فاتك ابن أبى جهل وكان المتنبى قد هجاه فتقدما فقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل سنة ٣٥٤هـ ، ولاخلاف عند أهل الادب في أنه لم ينبغ بعد المتنبى في الشعر من بلغ شاوه أو دانا ه على أنهم مجمعون على أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أبا تمام والمتنبى ويختلفون في المفاضلة بين الاخيرين من حيث الحكم والمعنى ولعل المتنبى أرجحهما وقد قال المتنبى الشعر في كل غرض من أغراضه ، وأجاد في وصف المعارك والمتاب والمراثى ، وأما مدائحه فهى اكثر بضاعته : وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه وله من الحكم والامثال مايربو به على كل شاعر تقدمه ومن كاتب أوخطيب أومتكلم أومناظر أومدرس الا وله من حكم المتنبى مدد أيما مدد ومن قوله

اذا رأيت نيوب الليث بارزة ·· فلا تظنن ان الليث يبتسم
أعيذها نظرات منك صادقة ·· أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ·· اذا استوت عنده الانوار والظلم
يامن يعز علينا أن نفارقهم ·· وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ان كان سركم ماقال حاسدنا ·· فما لجرح اذا أرضاكم ألم
بيننا لو رعيتم ذاك معرفة ·· ان المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ·· ويكره الله ماتأتون والكرم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ·· ألا تفارقهم فالراحلون هم

ومن قوله يمدح — سيف الدولة ويصف معركة :

أتوك يجرون الحديد كأنما ·· سروا بجياد مالهن قوائم (١)
خميس بشرق الارض والغرب زحفه ·· وفي أذن الجوزاء منه زمازم (٢)
تجمع فيه كل لسن وأمة ·· فما يفهم الحداث الا التراجم (٣)
وقفت وما في الموت شك لواقف ·· كأنك في جفن الردى وهو نائم

(١) كناية عن أنهم مسرعون الخيل بالحديد الى الارض.
(٢) أصوات الرعد وأراد بها الاصوات الشديدة .
(٣) لغة .

تمر بك الأبطال كلمى(١) هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... الى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضمنت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم
يضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصار الى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات(٢) حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
تشرتهم فوق الأحيدب(٣) كلمه ... كما نشرت فوق العروس الدراهم

ومن قوله يرثي :

ماكنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... أن الكواكب في التراب تغور
ماكنت أمل قبل نعشك أن أرى ... رضوى(٤) على ايدي الرجال يسير
خرجوا به ولكل باك حوله ... صعقات موسى يوم دك الطور
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه ... في كل قلب موجد محفور
كفل الثناء له برد حياته ... لما انطوى فكأنه منشور

وديوان شعره مشهور ومن شروحه المطبوعة شرح العكبري وشرح الواحدي

(١) مجروحة.
(٢) أعالي الصدور.
(٣) الرماح.
(٤) جبل الحجاز.
(٥) جبل بالحجاز.

أبو العلاء المعـــرى

هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخـــى الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد ولد بمعـــرة النعمان(١) ســـنـــة ٣٦٣هـ وجد في الثالثة من عمره فكف بصره وتعلـــم النحـــو والعربيـــة على أبيـــه وغيره من أئمـــة زمانه . وكـــان يحفـــظ كل ما يسمعه من مـــرة . وقال الشعـــر وعمـــره احـــدى عشـــرة سنة ، ودخل بغداد وأقبل عليه السيد المرتضى(٢) اقبالا عظيمـــا ثم جفاه(٣)

---

(١) بلدة بين حماة وحلب أضيفت الى النعمان بن بشير الصحابـــى لأنه اجتاز بها فدفن بها ولدا له ثم أقام بها .

(٢) هو السيد الشريف أبو القاسم على بن الحسين أخو الشريـــف الرضى ، وهو صاحب (أمالى السيد المرتضى) توفى سنة ٤٣٦هـ

(٣) وذلك أنه جرى يوما بحضرة المرتضى ذكر المتنبى فتنقصه فقـــال المعرى وكان يتعصب له لو لم يكن له الا القصيدة التى مطلعهـــا لك يا منازل فى القلوب منازل لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى وأمـــر فسحب برجله وأخرج من مجلسه وقال لمن يحضرته : أتدرون ، و أى شىء أراد الاعمى بذكر هذه القصيدة فان للمتنبى ما هـــو أجود منها ولم يذكرها فقيل السيد النقيب أعرف فقال أراد قولـــه فى هذه القصيدة :

واذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

ولما رجع السني المعرة أقام ولم يبرح منزله ونسك وسجن نفسه رهين المحبسين : بحبس المعى وبحبس المنزل وبقي في منزلة مكبا على التدريس والتأليف ونظم الشعر ، مقتنعا بعشرات من الدنانير في العام يحتفلها من عقار له ، ومجتنبا أكل الحيوان ومايخرج منه مدة ٤٥ سنة ، مكتفيا بالنبات والفاكهة ومتعللا بأنه فقير وأنه يرحم الحيوان . وظل على هذا السني الى أن مات سنة ٤٤٩ هـ بالمعرة ، وأوصى أن يكتب على قبره

هذا جناه أبي علي .. وما جنيت على أحد

وللناس في اعتقاده أقوال كثيرة وكان أبو العلاء المعري أحكم من رأى الناس بعد المتنبي ، يفضله الافرنج ويستشهدون بوهو عليه ، وشعره في المدائح والمراثي والوصف وبقية أغراض الشعر الادبية أرقى من شعره في النقد والفلسفة الا أن أكثر شعره من هذا القبيل ضمنه ديوانه السمي " لزوم مالا يلزم " فتقيد فيه بقيود حبست أفكاره ونهكت معانيه وعقدت أساليبه .

ومن مراثيه مرثيته المشهورة التي منها —

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيـ ... ـس بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها المياد (١)
ساح هذي قبور تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد ؟
خفف الوطء ما أظن أديم الا ... رض الا من هذه الاجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والاجداد
سر ان استطعت في الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحكا من تزاحم الاضداد
فاسأل المرتدين من أنبط (٢) ... من أبار وأنشأ من بلاد
ودفين على زوال عجبت ... وأثارا لدى بلى وفساد
تعب كلها الحياة فما أعجب ... الا من راغب في ازدياد
ان حزنا في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ساعة الميلاد

(١) أي أني لا أعرف الفرق بين صوت النعي وصوت البشير كما لا يعرف الناس صوت الحمامة فبعضهم يسميه بكاء وبعضهم غناء.

(٢) هما نجمان في بنات نعش الصغرى (الدب الأصغر).

خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار أعمال ... الى دار شقوة اعداء ؟؟

وهى طويلة ومنها :

بان أمر الاله واختلف النا ... س فداع الى ضلال وهاد
والذى حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتـ ... ـر بكون مصيره للفساد

ومن قوله الموهم فى اللزوميات :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

الطغرائى

هو مؤيد الدين الأستاذ العميد فخر الكتاب أبو اسماعيل الحسين ابن محمد الطغرائى صاحب لامية العجم برع فى الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه وترقت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق الى ان صار وزيرا للسلطان مسعود بن محمود السلجوقى صاحب الموصل ولما قهره أخوه السلطان محمود

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فى الدولة السلجوقية فوق ؟؟ ملة بسخط . معلق فيها نعوت السلطان وألقابه .

كان أول من أعتقل الوزير أبو اسماعيل الطغرائي فدس بعض حسدته من وشاة الكتاب الى السلطان محمود أنه ملحد فقتله ظلما سنة ١٣ هـ.

ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر، وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥ هـ يشكو فيها الزمان وأهله ومطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

ومنها :

حب السلامة يثني هم صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقا ... في الأرض أو سلما في الجو واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهن بالبذل
رضا الذليل يخفض العيش مسكنه ... والعز تحت رسيم الأينق الذلل

وقال يصف :

وكأنما الشمس المنيرة اذ بدت ... والبدر يجنح للمغيب وماغرب
متحاربان : لذا مجن صاغه ... من فضة ولذا مجن من ذهب

وقال يصف غديرا :

عجنا الى الجزع الذى مد فى ... أرجائه الغيم بساط الزهر
حول غدير ماز ه المنتشى ... الى بنات المزن يشكو الخصر
لو لاذت الريح سموما به ... لانقلبت وهى نسيم السحر
حصباؤه درو وضواحه ... سحالة المسجد حول السدير
وقد كسته الريح من نسجها ... درعا به يلقى نهال المطر
وألبسته الشمس من صبغها ... نورا به يخطف نور البصر
كأنما المرآة مجلوة ... على بساط أخضر قد نثر

ومن كلامه فى القصص والامثال :ـ

شؤم الوشاية

لقد جاء فى أمثالهم أن ثعلبا ... وذئبا أصابا عند ليث تقدما
أضر به جوع شديد فشفه (١) ... وأبقى له جلدا رقيقا وأعظما
ففاز لديه الذئب يوما بخلوة ... فقال :كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكله وأطعمه (٢) فما هو غيرنا ... ولست أرى فى أكله لك مأثما
فلما أحس الثعلبان بكيده (٣) ... تطيب عند الليث واختال مقدما

(١) شفه الهم والمرض أنحله .
(٢) أى وأطعمنا منه .
(٣) الثعلب المذكر .

وقال : أرى بالملك داء مماطلا تهدم منه جسمه وتحطما
وفي كبد الذئب الشفاء لدائه فان نال منها ينج منه مسلما
فصادف منه ذا قبولا فعندها أحال (١) على الذئب الخبيث فصمما
فأقبل (٢) يلوغ الأهتاب مرسلا (٣) فلما رآه الثعلبان تبسما
وصاح به بالابرس الثوب قائما (٤) متى تخل بالسلطان فاسكت لتسلما

البهاء زهير

هو الوزير الشاعر الكاتب أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد ابن علي المهلبي الأزدي المصري صاحب السهل الممتنع والغزل الرقيق والعتاب الرقيق .

ولد بوادي نخلة قرب مكة سنة ٨١ هـ ونشأ بمصر وأجاد فنون العربية فبرع نظما ونثرا وخطا ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (من ملوك الدولة الايوبية) وخرج معه في خدمته الى بلاد الشام والجزيرة . فلما نكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم الى ابن عمه الملك

(١) أقبل . (٢) الجلد .
(٣) أي ملطخ بالدم . (٤) أي شديد الحمرة .

الناصر صاحب الكرك وقبض على الصالح واعتقله بقلعة الكـــرك حفظ البهاء عهد صاحبه ولم يخدم غيره وأقـــام بنابلـــس حتى تقلبت الأحوال ،واسترد الصالح ملك الديـــار المصريـــة فقدم اليها فى خدمته واتخذه وزيره وموضـــع سره وأحلـــه منزلة لم تكن لغيره ،لحسن وفائه وبقى أثـــيرا عند الملـــك الصالح حـــتى مات فلـــزم داره ، وحدث فى القاهرة فـــى شوال سنة ٦٥٦ هـ وباء مات به وهى السنـــة التى سقطـــت فيها بغداد فى أيدى التتار.

وكانت سهولة طباع زهـــير فوق سهـــوله شعره وأكـــثر معانيه عاديـــة عامية ،الا أنه كساها ديباجة من لفظـــه وسهولة أسلوبـــه رفعتها فى أعين أهل الذوق الى مرتبة أحرار المعانى .

ومن شعره فـــى غير الغـــزل وقد غرقـــت به سفينـــة فسلم بنفسه منها وذهب ماكان معه :

لاتعتب الدهر فى خطب رماك به ان استرد فقدما طالما وهبـــا
حاسب زمانك فى حالى تصرفـــه تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا

والله قد جعل الايام داهرة فلا ترى راحة تبقى ولاتعبا
ورأس مالك وهى الروح قد سلمت لاتأسفن لشىء بعدها ذهبا
ماكنت أول مقروح بحادثة كذا مضى الدهر لابدعا ولاعجبا
ورب مال ثما من بعد مرتجه أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا

وقال يمدح :

أنا ذا زهير ليس الا جود كفك فى مزينة (١)
أهوى جميل الذكر عنك كأنما هو لى بثينة (٢)
فاسال غميرك عنودا فى انه فيه جهينة (٣)

وله لغزفى نقل :

وأسود عار أنحل البرد جسمه وما زال من أوصافه الحرص والمنع
وأعجب شىء كونه الدهر حارسا وليس له عين وليس له سمع

(١) يشير الى زهير بن أبى سلمى المزنى الجاهلى مادح هرم بن سنان
(٢) يشير الى جميل الشاعر المحب صاحب بثينة
(٣) يشير الى قبيلة جهينة المضروب بها المثل فى تعرف الاخبار.

الشعر في الدولة الأيوبية

لما ظفر صلاح الدين بملك الفاطميين ، ورد غارات الصليبيين التف الشعراء بمصر والشام حوله ، وكان صلاح الدين يفهم الشعر ويهتز له ، وكان جوادا سخيا .

فأسباب نمو الشعر في عهد صلاح الدين ، أنه مجاهد غازي في سبيل الله ، جواد فياض اليدين ، يدرك أسرار بلاغة الشعر ، وكان وزيره القاضي عبدالرحيم البيساني ، وهو امام البلاغة في فني المنظوم والمنثور (توفي سنة ٥٩٦ هـ) . وكان كاتبه ورفيقه في أسفاره عماد الدين الأصبهاني المبقري . مات سنة ٥٩٧ هـ .

وجرى خلفاء صلاح الدين على سنته وان لم يبلغوا مبلغه ، فكان للشعر والأدب في أيامهم سوق رائجه . ومن أشهر شعراء هذه الدولة نصر الله بن فلاقس الاسكندري ، وكان شاعرا مجيدا مدح القاضي الفاضل ودخل اليمن ومدح ياسرا وزيرها ، فأجزل صلته .

ولد بثغر الاسكندرية سنة ٣٢ هـ وتوفي بمنهذاب سنة ٦٧ هـ ومن مبدعيهم القاضي السعيد بن سناء الملك هبة الله ، وكان شاعرا محظوظا في الدنيا ، فنانا في بدائعه وأخيلته ، وله ديوان جمعه موشحات سماه دار الطراز .

وكانت له صلة وثيقة بالقاضى الفاضل ، وكانت بينهما رسائل ومطارحات شعرية .

ومن جيد شعره القصيدة المشهورة التى منها :

سوى يخاف الدهر أو يرهب الردى ... وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
ولكننى لا أرهب الدهر ان سطا ... ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا
ولو مد نحوى حادث الدهر كفه ... لحدثت نفسى أن أمد له يدا

ومن الشعراء المبرزين ابن الساعاتى ، ومن قوله :

؟؟ لله يوم فى سيوط وليلة ... صرف الزمان بأختها لا يغلط ؟؟
والطل فى تلك الصنون كلؤلؤ ... وطب يصافحه النسيم فيسقط

(مات بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ)

وكان فى هذا العصر كمال الدين بن النبيه الشاعر المصرى الرقيق ، مدح بنى أيوب ، وأقام فى نصيبين (توفى بها سنة ٦١٩هـ) .

وله القصيدة الرائعة : التى منها :—

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناء لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تحتلى أوائله ... لكنه ربما مرت أواخره

وهو من أهل صعيد مصر نشأ بقوص ثم اتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي ، ويصور شعره الرقة المصرية ، كتب الى البهاء زهير وقد سأل عنه وهو مريض :

أيا من راخ عن حالي يسائل مشفقا حدبا
ومن أضحى أخالي في السواد وفي الحنو أبا
وحقك لو نظرت الي كنت تشاهد العجبا
جفون تشتكي عرقا وقلب يشتكي لهبا

(توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩هـ)

عمر بن الفـــــــارض

وهو عمر بن علي بن المرشد الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد بالقاهرة سنة ٧٦ هـ.

وكان من أصاله كتابة "فروض النساء" لذلك سمى ابنه بابـــن الفارض قابل أحد الصوفية فنصح له أن يذهب الى مكة فسافر اليها، وأقام بها خمس عشرة سنة، ثم عاد الى القاهرة فكان موضع اجلال الناس.

وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ. ودفن بالقرافة بسفح المقطم.

وديوان شعره مشهور ذائع، وهو شعر صوفي، يكثر فيه البديع ـــــح الاجادة والرقة، وقد اشتهرت تائيته الكبرى التي جمع فيها كثيرا من حقائق طريقة القوم، وعدد أبياتها واحد وستون وسبعمائة بيت، وأولها:

سقتني حميا الحب راحة مقلـــتي ... وكأسي محيا من عن الحسن جلـت

ومن تسابيته الصغرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لاحبتـــي ... فياحبذا ذاك الشذا حين هبت

تذكرني العهد القديم لأنهـــا ... حديثة عهد عن أهيل مودتـــي

على بين هاتيك الخيام صبابـــة ... على بجسمي سحة يتشتتـــي

محجبة بين الأسنة والظبـــا ... اليها انثنت البابها اذ تثنـت

تتيح المنايا اذ تتيح لنا المنى وذاك رخيص منيتي بمنيتي
متى أوعدت أولت وان وعدت لوت وان أقسمت لاتبرىء السقم برت

ومنها :

ودع عنك دعوى الحب واختر لغيره
فؤادك وادفع عنه غيك بالتي
غرامي أتم صمتي انصرم دمعي انسجم
عدى انتقم دهري احتكم حاسدي اغتم

.....

الكتـــــابة

انتقلت الكتابة العربية فى هذا العصر من الاقتصار على جزالـــة اللفـظ ووضوح الدلالة والايجاز وقلة السجع الى التعمل والمغـــالاة فى الصناعة اللفظية ،باستعمال المحسنات البديعية ،من التـــزام السجع بأنواعه والجناس والطباق والتورية ،والتكلف فى ذكر المجـاز والاستعارة والتشبيه وكثرة التضمين ،والاقتباس للاحاديث والامثـــال والحكم والابيات المشهورة وضع الفرس فى الكتابة كثيرا من ألقـــاب التعظيم والتبجـيل ،وأدخلت بعض العبارات الفلسفية فى كتابـــة الرسائل كما فى كتابة ابن العميد وغيره.

ثم اطلع بعض الكتاب النابهين على شىء من أساليب القـــصص الفارسية سواء أكان ذلك بالسماع أم بالقراءة ،وأخذوا فى محاكاتهـــا فنشأ من ذلك الرسائل القصصية المعروفة بالمقامات.

وبلغت الكتابة فى هذا العصر شأوا لم تبلغه فى أى عصر من عصـور اللغة من حيث الصناعة اللفظية . وكان فى هذا العصر أعلام الكتاب وكبار الادباء كابن العميد والبديع والخوارزمى والحريرى والصابى والعمـاد الاصبهانى ولم تعرف اللغة مثل هؤلاء بعد الجاحظ وابن المقفع ومـــن عاصرهما.

ولكن الكتاب اقتصروا على كتابة الدواوين والاخوانيات والرسائل الأدبية ولم يعنوا بالموضوعات العامة كالقصص والتوسع فى أخيلة المقامات وأغراضها .

ولاشك فى أن استيلاء الاعاجم على الدولة الاسلامية كان من أسباب اتجاه الكتابة الى العناية بالزخرف اللفظى والانصراف عن الأسلوب العربى الذى امتاز به كتاب العصر الأول .

ابن العميـــــد

هو الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد . ولد في سنة ٣٠٠هـ وتوفي سنة ٣٦٠هـ . وهو من أصل فارسي . كان والده مشهورا بالعلم وحسن التدبير فاتصل ببني بويه وساعدهم على تأسيـــس دولتهم . وقد تربى ابن العميد ونشأ على ما كان عليه أبوه فاستوزره ركن الدولة بن بويه وصقل فروقه في الكتابة ومعرفته بفنون الكلام والميل الى تهذيب العبارات والاعتناء بانشاء الرسائل حتى برع في الكتابة دون غيرها من الفنون والعلوم وكان من أئمة البلاغة في زمانه وقد كانت العناية بالصناعة اللفظية في عصره تفوق كل شيء . فلما ذاع أمر ابـــن العميد في الكتابة اتبع الناس طريقته ولهجوا بها وانتشر أسلوبه فـــي العالم العربي ولاسيما بلاد العراق وخراسان وما جاورها . وعرفـــت طريقته بطريقة ابن العميد . وهي أن تكون مسجعة قصيرة الفقرات مـــع شيء من المحسنات البديعية وتنميق العبارة واختيار الجمل والألفاظ واقتباس الأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة والأمثال السائـــرة والمحـــفوظة والآيات القرآنية . حتى قالوا : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد " .

القاضي الفاضـــل

ولد بمدينة عسقلان(١) سنة ٥٢٩ هـ ، وأخذ عن أبيه الأشـــرف قاضي عسقلان بهاء الدين طرفا من علوم اللغة والأدب ، ثم قـــدم الى مصر في صباه لتعلم الكتابة ، وكان ذلك في أواخر دولة الفاطميين ونزل بمدينة الاسكندرية ، ولازم قاضيها ابن حديد ، وتعلم عليه . ولما برع في الكتابة وعرف فضله انتقل الى القاهرة ، وصار من كتاب الظافر وشاع فضله فاتخذه صلاح الدين الأيوبي وزيرا له عندما استولى على مصر ثم كان وزيرا لأولاده يدبر الملك ويحوس أمور الدولة ويتنقل بين مصـــر والشام يتعرف أخبار الأدباء والكتاب في بلدان المشرق حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ .

كان أسلوب ابن العميد قد ذاع قبل ذلك في العراق وما جـــاوره فوقف القاضي الفاضل على صنعة الكتابة لدى كبار الكتاب في المشـــرق والمغرب وعمل على ابتكار طريقة جعل أساسها الصناعة اللفظية ، وأخصها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظير والاستعارة وغيرها . فانتشـــرت طريقة القاضي الفاضل بمصر حتى كانت مذهبا لكتابها ، بل تخطت مصـــر الى غيرها من البلدان ، كما تخطت طريقة ابن العميد بلاد الجزيرة ومـــا حولها من المدن الاسلامية وقد كان من جراء ذلك أن شغل الكتـــاب بالألفاظ والصناعة عن المعاني .

(١) بلدة كانت على ساحل فلسطين وموضعها الآن خرب .

من رسائل القاضي الفاضل

كتب القاضي بمعنى الملك العادل في الملك العزيز :

"أدام الله سلطان مولانا العادل ،وبارك في عمره ،وأعلى أمـــره بأمره وأعز نصر الاسلام بنصره ،وفدته الانفس الكريمة ،وأصغر اللـــه العظائم في نعمته العظيمة ،وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيهـــا والاسلام في مواقف السلام الجسيمة ،وينقلب عنا بالامور السلمة والمواقف السليمة ولانقص له رجالا ولاعددا ،ولا أعدمه نفسا ولا ولدا ،ولاقصر له ذيلا ولايدا ولا كدر له خاطرا ولامورداً . ولما قدر الله ماقدر في الملك العزيز ،رحمة الله عليه ،وتحياته مكررة اليه ،من انقضاء مهله وحضـــور أجله ،كانت بديهة المصاب عظيمة ،وطالعة المكروه أليمة ،فرحم الله ذلك الوجه ونضره ،ثم الى الجنة يسره.

واذا محاسن أوجه بليت فعفا الثرى عن وجهه الحسن

---

(١) بده الرجل بغته وفاجأه.

ثناء المعاذ للقاضي الفاضل

"... وهو المولى القاضي الأجل، وواحد الزمان، العظيم الشأن، رب القلم واليمان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمح له بمماثل في الأوائل، ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره - فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار أين قيس في مقام حصافته، وحاتم وعمرو في ساحته وحماسته لا من في فعله، ولا مين في قوله، ولا خلف في وعده، ولا بطء في رفده".

.....

المقامـــــات (١)

كان من أثر اتصال كتاب العربية بالفرس ،وتنقلهم فى أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ،أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ،وخالطوا العامة من الناس وسمعوا شيئاً من أقاصيصهم وأحاديثهم ،فأخذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال ونقلها الى اللغة العربية . وقد كان أثر الحياة الفارسية قبل هذا العصر دخل فى لغة العرب ،فى كتبه ابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما . فظهر أثر ذلك فى الكتابة النثرية ، فلما كان هذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب أحد الناس وأخلاقه ،ويذكر بها بعض الحوادث ، والأماكن بأسلوب مسجع طريف ، وكان النثر الى هذا العصر مقصوراً على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ولم يكن الأسلوب القصصى قد تسرب بعد الى الكتابة العربية فلما كتب بديع الزمان مقاماته ،كانت تلك المقامات نوعاً جديداً فى أساليب النثر العربى ،وسار على أسلوب الهمذانى من جاء بعده من الكتاب أصحاب المقامات كالحريرى وغيره .

(١) المقامة لغة المجلس والجماعة من الناس ،ثم أطلقت فى عصر بنى أمية وصدر الدولة العباسية على ما يحكى فى المجالس من القصص والسمير وكل ما يكسب السامع علماً وأدباً ، ثم شاع استعمالها بعد ذلك على ما يقصه أهل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغة عربية فصيحة مملوءة بالتعمل والصناعة اللفظية حتى صار أسلوبها من نماذج أساليب النثر فى الأدب العربى وقد اذاعت أساليب المقامات بين كتاب العربية على نحو ما كتب الهمذانى والحريرى .

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي مقامات الهمذاني : أما مقامات الهمذاني فهي حكايات أو قصص قصيرة ، انتزعها بديع الزمان من الحوادث التي وقعت له أو شاهدها في أثناء رحلاته الكثيرة في بلاد خراسان وما جاورها . فكتب مقاماته وعزاها إلى رجل سماه أبا الفتح الاسكندري . ونسب روايتها الى رجل آخر سماه عيسى بن هشام :

وموضوع مقاماته أن رجلا محتالا أديبا هو أبو الفتح الاسكندري كان يجول في البلاد ويتفنن في أساليب الاحتيال للحصول على المال وكل مقاماته التي تنيف على الخمسين لا تخرج عن هذا الغرض ، ولكنها تمتاز برقة أسلوبها ، وسلامة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعاني الطريفة ، والألفاظ اللغوية وعدم التكلف الظاهر حتى لقد يبدو أحيانا أن أسلوبها أقرب الى الكلام الفطري منه الى التعمل والصنعة وهي مسجوعة ، ولكن سجعها رقيق سهل ، احتوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

(١) أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني الملقب ببديع الزمان ولد بمدينة همذان أواسط القرن الرابع الهجري ، وحذق علوم اللغة العربية والفارسية . وتنقل في كثير من بلاد خراسان وذاع أمره في نيسابور وهناك كتب مقاماته وتوفي سنة ٣٩٨هـ .

من مقامات الهمذاني

من المقامة الحلوانية - حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قفلت من الحج فيمن قفل ، ونزلت حلوان مع من نزل ، قلت لغلامي : أجد شعري طويلا وقد اتسخ بدني قليلا ، فاختر لنا حماما ندخله ، وحجاما نستعمله وليكن الحمام واسع الرقعة ، نظيف البقعة ، طيب الهواء ، معتدل الماء وليكن الحجام خفيف اليد ، حديد الموسى ، نظيف الثياب قليل الفضول فخرج مليا ، وعاد بطيا ، وقال : قد اخترت كما رسمت ، فأخذنا الى الحمام السمت : وأتيناه فلم نر قوامه ، ولكني دخلته ودخل على أثري رجل وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبيني ، ووضعها على رأسي ثم خرج ودخل آخر ، فجعل يدلكني دلكا يكد العظام ، ويغمزني غمزا يهد الاوصال ، ويصفر صفيرا يرش البزاق ، ثم عمد الى رأسي يغسله والى الماء يرسله ومالبث أن دخل الاول فحيا أخذ الثاني ، بمضمونه فمقمت أنيابه ، وقال : يالكع مالك ولهذا الرأس وهو لي ، ثم عطف الثاني على الاول بمجموعة هتكت حجابه ، وقال : بل هذا الرأس حقي وملكي وفي يدي ، ثم تلاكما حتى عيها ، وتحاكما لما لقيا ، فأتيا صاحب الحمام فقال الاول : أنا صاحب هذا لاني لطخت جبينه ، ووضعت عليه طينه وقال الثاني : بل أنا مالكه لاني دلكت حامله ، وغمزت مفاصله ، فقال الحمامي : ائتوني بصاحب الرأس أسأله ألك هذا الرأس أم له ،

فأتياني ،وقالا : لنا عندك شهادة فتجشم ، فقمت وأتيت ،مشيت أم أبيت فقال الحامي : يارجل لاتقل غير الصدق ،ولاتشهد بغير الحق وقل لي هذا الرأس لأيهما ؟ فقلت: باعفاك الله،هذا رأسي قد صحبني في الطريق ،وطاف معي بالبيت العتيق ، وماشككت أنه لي ...الى آخر العلامة.

مقامات الحريـــرى

من نسج على منوال الهمذانى فى مقاماته القاسم بن علـــى الحريرى (١) فقلده فى أسلوبها ونظمها وموضوعاتها وصفات راويهـا. فقد جعل أبا زيد السروجى الذى عزى اليه مقاماته مثل أبى الفتح الاسكندرى : رجلا أديبـا محتالا وكانت موضوعاته فى مقاماته أشبه بموضوعات مقامات البديع لأن الحريرى وصف أبا زيد السروجى بأنه فقير محتال يستعمل ذكاءه وقوة بيانه فى عطف الناس عليه واستدرار ما أموالهم " وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل أو صور لبعض الناس ولاسيما الأدباء منهم ، فبان لنا هو كامن فى نفوسهم من أطمـــاع وحيل واحتمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك وقد أطنب الحريرى فى ذكر صفات أبى زيد السروجى مثلما أطنب الهمذانى فى صفات أبى الفتح الاسكندرى مأما أسلوب مقاماته فأظهر شىء فيه تعمد السجـــع والمحافظة اللفظية ولكن التكلف لا يظهر فى كثير منها ومن سيئات أسلوب هذه المقامات أنهـــا جمعت ألفـــاظ لغويـــة وجمـــل مختارة وأمثال سائرة وأشعار رقيقة.

(١) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦هـ بقرب مدينة البصـــرة ونشأ بالبصرة — فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها حتى صار اماما فى ذلك وألف كتبا فى اللغة منها درة الغواص فى أوهام الخواص. فكان شاعرا وأديبا وكاتبا وعالما " ومن أشهر مكتب مقامات الحريرى . ويحسب الحريرى بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم.

التدوين والتأليف في العصر العباسي الثاني
في العراق وخراسان ومصر والشام

منذ العصر العباسي الثاني لم تعد الدولة الاسلامية دولة واحدة يرجع ولاة الاقاليم فيها الى رئيس واحد هو الخليفة بل تعددت الدول واستقلت بشؤنها ، ان اعترف بعضها احيانا بالخليفة العباسي ببغداد فاعتراف اسمي أما الحقيقة فهي أن كل دولة مستقلة بنفسها فالدولة البويهية في العراق وفارس وخراسان (٣٢٠ـ٤٤٧هـ) وخلفتها الدولة السلجوقية . والدولة الفاطمية بمصر (٣٥٧ـ ٥٦٧هـ) خلفها الايوبيون . والدولة الحمدانية فيما بين النهرين وحلب (٣١٧ـ٣٩٤هـ) وخلفها الفاطميون في الشام والدولة السامانية فيما وراء النهر (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ) الى كثير من هذه الدول .

وانقسام الدولة هذه الاقسام ـ ان أضعف الدولة سياسيا في كثير من الاحيان ـ لم يضعفها علميا بل كان الامر عكس ذلك ، فقد كانت هذه الدول المختلفة تتبارى في تشجيع العلم وتعد من مظاهر عظمة الدولة أن تتزين بمشهوري العلماء واستدعائهم من أقاصي البلدان وتشجيعهم بما تغدق عليهم من المال .

وأنشأ الفاطميون بمصر دور الكتب العامة وعقدوا فيها المناظرات وعنوا بالفقه الشيعي والدعوة الى مذهبهم ، كما عنوا بعلم الفلك .

وخلف الفاطميين في مصر والشام الأيوبيون ، وقد قضوا على المذهب الشيعي في مملكتهم وأحيوا مذهب أهل السنة وقربوا العلماء والأدباء

ومن أجل هذا سارت النهضة العلمية في تقدمها المطرد ولم تتأثر بالانقسام السياسي ، فكانت الحركة العلمية ، وانتاج المؤلفين اكثر مما كان في العصر العباسي الأول من حيث الكم ومن حيث الكيف ، فقد كان اكثر النتاج العلمي في العصر العباسي الأول جمعا ونقلا من اللغات المختلفة فصار في العصر الثاني هضما وابتكارا وانتاجا جديدا في كثير من الأحيان ونبغ العلماء في كل فن من فقه وحديث وتاريخ وجغرافيا ولغة وفلسفة وغيرها ، وكثرت دور الكتب وقصدها طلاب العلم وزخرت بالكتب من كل فن كمكتبة العزيز الفاطمي بالقاهرة ، ودار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ومكتبة سابور بن أردشير في بغداد وهكذا .

التدوين في الأدب ـ ومن أظهر ما حدث في هذا العصر في كتب الأدب الميل الى الجانب العلمي وصيغ الكتب صيغة فلسفية والعناية بتراجم الشعراء والكتاب ترجمة مفصلة على نحو ما فعل المحدثون في رجال الحديث ، فألفت كتب في نقد الشعر والشعراء والطعن فيهم والانتصار لهم ، كما فعل الآمدي في كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحتري سنة ٣٧٠هـ ، وقد تقصد الشاعرين نقدا محكما وأبان ما للشاعرين من محاسن ومساوئ ، وكما فعل الصاحب بن عباد .

فقد وضع كتابا فى بيان عيوب المتنبى ،وانتصر للمتنبى آخرون فوضع القاضى عبدالعزيز الجرجانى كتابا وقف فيه موقف الحكم بين المتعصبين له والمتعصبين عليه سماه " الوساطة بين المتنبى وخصومه "

ومن أشهر كتب الأدب المؤلفة فى هذا العصر كتاب " الاغانى " لابى الفرج الاصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦هـ وهو عربى من نسل بنى أمية ، ولد بأصفهان وانتقل الى بغداد ،ويعد كتابه الاغانى أجمع الكتب فى تراجم الشعراء والادباء وأخبار العرب فى الجاهلية والاسلام .

كذلك من أهم الكتب التى ألفت فى تراجم الشعراء : كتاب : " يتيمة الدهر " لمؤلفه أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩هـ وقد ترجم فيه لشعراء المائة الرابعة ،ولذلك سماه " يتيمة الدهر " فى شعراء أهل العصر " وقد رتبه ترتيبا حسنا باعتبار الأقطار ،فترجم لشعراء الشام ،ولشعراء مصر والمغرب ولشعراء الموصل ،ولشعراء البصرة ، ثم العراق ،ثم بغداد ،ثم ذكر محاسن الدولة السامانية وترجم لشعرائها ،ثم لفضلاء خوارزم .

وقد تأثر بلغة العصر فكاد يلتزم فى تعبيره السجع ويلحق بكتب الأدب كتب القصص ،ومن أشهرها " كتاب ألف ليلة وليلة وهو قصة نقل اساسها فى القرن الثالث الهجرى ولكن زادت قصصها وغيرفيها على توالى العصور كما يدل على ذلك أخبار فيها حدثت فى أيام المماليك .

علم اللغة — بدأ علماء اللغة فى العصر العباسى الأوّل يجمعون اللغة مما يسمعون من العرب شفاها ، فكانوا يخرجون الى البادية ليسمعوا من فصحاء الاعراب ، وكان الاعراب أنفسهم يفدون الى العراق فيأخذ عنهم العلماء ، ولم يكن جمعهم خاضعا لاى ضرب من ضروب الترتيب ، ثم أخذوا يجمعون الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى أوراق سموها كتابا ، كما فعل الأصمعى فى كتاب الخيل والابل والكرم الخ . وفى ذلك العصر أيضا خطر للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٨٠ أن يجمع الكلمات العربية التى وصلته ويكون منها معجما ، فرسم لذلك كتاب العين ورتبه على حسب مخارج الحروف ، فبدأه بحروف الحلق وختمه بحروف الشفة ، ولكن كان استخراج الكلمة منه شاقا ، وجاء بعده ابن دريد المتوفى سنة ١٨٨ فألف كتاب الجمهرة على هذا النمط .

حتى أتى العصر الثانى فألفت فيه معاجم كثيرة كالتهذيب للأزهرى سنة ٣٧٠ هـ والمجمل لابن فارس سنة ٣٩٠ ثم جاء الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ تركى الأصل من فاراب فألف كتابه الصحاح وقد وضعه على منهج جديد فحذف المهمل ورتبه على حسب حروف الهجاء المعروفة وراعى اخر الكلمات بعد تجريدها من زوائدها ، وجعل آخر الكلمة بابا وأولها فصلا ، وتقتصر فيه على الكلمات التى صحت عنده ، ولذلك سمى كتابه الصحاح . وقد جرى على هذا النمط كثير من المعاجم التى ألفت بعده كالقاموس المحيط للفيروزابادى ولسان العرب لابن منظور .

ومن أشهر كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر "المخصص" لابن سيده الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ وقد نحا فيه نحو آخر اذ جمع كل الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد فمثلا كل الكلمات التي تتعلق بالابل جمعها ورتبها فصولا مفصل في أسنان الابل ومفصل في أمراضها وهكذا وهو كثير الفائدة وخاصة للذين يبحثون عن المعاني أكثر من المسميات ولا يعرف له لفظا يدل عليه.

كذلك مما ألف في هذا العصر من كتب اللغة كتاب "الفائق في غريب الحديث" و"أساس البلاغة" كلاهما للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ وقد نحا فيهما منحى خاصا اذ جعل ترتيبه أوائل الحروف في الكلمة لا أواخرها. وقد تبعه في ترتيبه بعض المعاجم التي وضعت بعده كالمغرب للمطرزي والنهاية لابن الاثير والمصباح المنير.

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحـــه
القدمـــة	٣
القسم الاول ـ العصر العباسى الأول	٥
الحياة الإسلامية فى هذا العصر	٧
تأثر الأدب بالحضارتين الفارسية واليونانيـــة .	٩
الشعر فى العصر العباسى الأول	١١
أبو نـــواس	١٩
أبو العتاهيـــة	٢٨
البحتـــرى	٣٠
ابن الرومـــى	٣٢
ابن المعتـــز	٣٤
الكتابـــة	٣٦
عمرو بن مسعـــدة	٤١
ابراهيم الصولـى	٤٢
التأليف والترجمة	٤٤
القسم الثانى : العصر العباسى الثانى	٥٥
أولا : عصر النفوذ التركـــى	٥٦
انقسام الدولة العباسية الى دول وامارات	٦٠
ماقيل فى تصوير احوال هذا العصر	٦١
ثانيا : عودة النفوذ الفارسى أوعهد البويهيين (٣٣٤ـ٤٤٧)	٦٧
أثر الحياة السياسية فى العصر العباسى الثانى فى العلم والادب	٧٢
الشعر فى الشام	٧٦

الموضوع	الصفحة
الشعر فى مصر	٧٨
الشريف الرضى	٨٣
الشعر خارج بغداد بعد انقسام الدولة	٨٤
السرى الرفاء	٨٦
الشعر	٩١
دلائل تأثر الأدب بالحياة السياسية والاجتماعيه فى العصر العباسى الثانى	١٠١
الحياة الاجتماعيه وأثرها فى العلم والأدب فى هذا العصر	١٠٧
نماذج من الشعر فى الأغراض المختلفة	١١٠
الحماسة	١١٠
المدح	١١٠
الرثاء	١١١
الهجاء	١١٢
الاعتذار	١١٣
الوصف	١١٤
الاجتماع والسياسة	١١٥
الحكمة والمثل	١١٦
تراجم لبعض مشاهير العصر من الشعراء	١١٨
ابن المعتز	١١٨
أبو الطيب المتنبى	١٢٠
أبو العلاء المعرى	١٢٥
الطغرائى	١٢٨
البهاء زهير	١٣١
الشعر فى الدولة الأيوبية	١٣٤

الموضـــوع	الصفحـــه
عمر بن الفـارض	١٣٧
الكتابـــــة	١٣٩
ابن العميـــد	١٤١
القاضى الفاضـل	١٤٢
من رسائل القاضى الفاضل	١٤٣
رثاء العماد للقاضى الفاضل	١٤٤
المقامـــات	١٤٥
مقامات الهمذانـــى	١٤٦
من مقامات الهمذانى	١٤٧
مقامات الحريـــرى	١٤٩
التدوين والتأليف فى العصر العباسى الثانى فى العراق وفى مصر والشام	١٥٠
التدوين فى الادب	١٥١
علـم اللغـــة	١٥٣

الفهرس